الزمنُ المستحيل

الزمنُ المستحيل

(رواية)

وفاء عبد الرزاق

Almothaqaf Arabic Association

الزمنُ المستحيل

وفاء عبد الرزاق

الطبعة الأولى 2014

القياس: 14.5 x 21.5
لوحة الغلاف: الفنان قاسم العزاوي
عدد الصفحات: 221
ISBN 978-9953-574-97-4

من إصدارات

مؤسسة المثقف العربي
سيدني/أستراليا
www.almothaqaf.com
almothaqaf@almothaqaf.com

نشر وتوزيع

شركة العارف للأعمال ش.م.م.

بيروت – لبنان
00961 1452077
العراق – النجف الأشرف
00964 7801327828

التوزيع في الجزائر والمغرب العربي:
دار الأبحاث للطباعة للنشر والتوزيع
الجزائر – هاتف: 744281 ـ 21 (00213)
البريد الإلكتروني: www.alabhaath@.com

جميع حقوق النشر محفوظة، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطّي من أصحاب الحقوق.

هامّ جدّاً: إن جميع الآراء الواردة في الكتاب تعبّر عن رأي كتّابها ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر...

إهـداء

الزمنُ المستحيل هو زمنهم،
كما هو الحزن المستحيل حين يتحول فرحاً.
إليهم... حين اجتمعوا كلهم في كأسي
وصاروا خطوة للضوء.

وفـاء

عـرفـان

أقدم روايتي هذه هدية إلى مؤسسة المثقف "سيدني استراليا" ممثلة براعيها الأستاذ ماجد الغرباوي، وكل كتّابها وكاتباتها.

كما أخص بالشكر الدكتور مسلك ميمون من المغرب الذي كان يحثني دائماً على الاستمرار بكتابتها.

عرفان خاص إلى الدكتور عبد النبي ذاكر أغادير المغرب، لتقديمه الجميل وتفاعله مع ذوي الاحتياجات الخاصة وحقهم في حياة كريمة. ولتقديمه الراقي للرواية إذ اعتبرها جزءاً منه، وذلك للجانب الإنساني بشخصيته.

الزمنُ المستحيل...

بقلم: د. عبد النبي ذاكر

نصٌّ روائي استثنائي ـ صياغة وثيمة ـ لقصاصة وشاعرة عراقية مغتربة بلندن.. وفاء عبد الرزاق.. سافرت طويلا في الشعر فصيحه وشعبيِّه، وفي السرد القصصي والروائي بشاعرية باذخة. كما جابت عميقا تضاريس النفس البشرية، بحثا عن الإنسان فينا، ملتزمة بقضايا الإنسان والإبداع والسلام، حاضنة للأيتام وأطفال الشوارع.. سفيرة للنوايا الحسنة.. وراعية للفضائل الإنسانية، في وقت تعج فيه المكتبات والقنوات الفضائية بتعويذات السحر، ووصفات الطبخ، وأجساد معافاة لمطربات ومطربين ومصارعي الثيران والبشر.

مَن أقدر منها، إذن، على فك طلاسم المستحيل، وفضح عمى الإنسانية، وإعاقات القلب وقحط الضمير، في زمن شديد الإعاقة لا تسعف فيه العبارة، إلا إذا اقترنت بقلب مرهف تجرحه رفرفة جناح فراشة أضناها عشق الضوء. و"أجمل ضوء لمعرفة العالم هو الكتابة.. حين تكتب، هذا يعني أنت تماما على أولى عتبات النهار". وحين يتحول الحزن المستحيل إلى تباشير فرح عارم، يعرُجُ المعطَّلون جسداً وروحاً خطوة نحو الضوء وشلالات نور الأمل الرابض خلف جليد اليأس والبؤس والقنوط وقسوة العزلة القاتلة.

أمام أنانية "الأسوياء" وعجرفتهم وتسلطهم وغياباتهم الدائمة

حدَّ الفقْد، ينحاز صوت أبطال الرواية المعاقين مجلجلا ومدويا ليمكُر بخطاب السلطة و"الشفقة" والقانون و"الشرائع"، لفتح كوة نور وفرح لا يعلم مقاسها الفادح إلا "المعاق".. لا شيء يقف في وجه الإعاقة غير تكبيلات الجسد العليل، أما الروح فمنذورة للمبادرة، وتملِك من الاختيارات المسئولة ما يدين غرور "السوي"، ويجعل من الضحية شخصا قادرا ـ رغم ضعفه وبسبب ضعفه ـ على الإفلات من شرنقة العتمة، وهزم جلاديه الواقعيين والرمزيين.. هزمهم بالريشة والقلم وروح المبادرة والإرادة الحرة:

"أنا عنقود الأحمدي نزيل دار رعاية ذوي الاحتياجات الخاصة،، أُعلِّم الآن في حصص الرسم من له رغبة في ذلك،، وأشجع ذوي المواهب الجدد لأعينهم على تقبل الإعاقة برحابة صدر.."

(لقد طرتُ يا أبي بجسدي وروحي خارج العتمة)

بل لقد جعل البطل من الكتابة.. كتابة رواية.. ضرورة حميمية و"انفتاح كلي للروح والجسد" على حد تعبير فرانز كافكا.

بهذه الروح الكافكاوية، أخذت الرواية معول الهدم لتحطيم طابوهات الإعاقة، وتهشيم جليد الصمت المطبق المستحكم حولها.

في رسالة إلى صديقه أوسكار بّولاك ذكر كافكا، ما يلي: "ينبغي أن يكون الكِتاب تلك الفأس التي تفلق البحر الجليدي بدواخلنا". وفي الرسالة نفسها أعلن: "إذا لم يوقظنا الكِتاب الذي نقرأه بضربة على جمجمتنا، ففيمَ تفيد قراءته!".

بل لقد جعل البطل من الكتابة.. كتابة رواية.. ضرورة حميمية و"انفتاح كلي للروح والجسد" على حد تعبير فرانز كافكا.

بهذه الروح الكافكاوية، أخذت الرواية معول الهدم لتحطيم طابوهات الإعاقة، وتهشيم جليد الصمت المطبق المستحكم حولها.

في الرواية تطالعك أيضا علاقة إشكالية مع الأب، تذكرنا بالبيت الشهير لشيخ المعرة:

هذا ما جناه أبي علي وما جنيت على أحد

وبالروح الكافكاوية نفسها، تنسج الرواية الخيوط الواهية التي تربط ـ تَفصِل الأب عن ابنه، وتجعله يقاوم الموت بالحياة، ويمحو عار النسيان بنسيان عار الاستلاب:

"إنني لا أستطيع وصف جرح مضفور في الروح من أب عدَّني عالة عليه ورماني في دار الرعاية الخاصة، وكأنه في سلوكه هذا ارتدى درعا واقيا يحميه من عاره.

ليته ارتدى الواقي ساعة نزوته وكفاه استلاب إنسانيتي.

هيا اقرأ يا "أحمد" واثبت لأبي أنه وهبني الموت وأنا وهبتُ نفسي الحياة".

لا شيء غير التحدي والحلم يقفان سببا يثبت فيه البطل لأب مفرط في الأكل والجنس والحرص على تنمية تجارته، تجاهَلَه وتخلى عنه "أنه وأمثاله البؤساء ولست أنا".

حين يكون الابن المعاق ثمرة نزوة عابرة، تتفاقم القسوة ولعنة الضعف، وتتبرعم الأعذار الواهية:

"جئتُ نتيجة ليلة حمراء مع راقصة رمت إلى أبي هذا الكائن دون اهتمام أو رأفة.. أرسلته مع سائقها وهو في يومه الرابع،،فأصبح عائقا لأب حريص على تجارته أكثر من حرصه على ابنه،، مما جعله يلجأ إلى الدار لتحميه من شر الرعاية الخاصة واعتذار الخدم في منزله الفخم بأعذار واهية، توهم قلة حيلتهم تجاه هذا الكائن الضعيف.. بالنسبة إليهما أنا مجرد كائن غير مرغوب فيه.

لعنت في سري أبي، ولعنت قسوة الإنسان..."

أمام ضُعف الجسد وهوانه، تتشظى الروح المكلومة لتخاطب ضِعفها وتناجيه، وتكتب مذكراتها داخل مذكراته:

"يا له من ازدواج بشخصي، ،أحدث الآخر وأصوره وأعيش معه، يحاورني، ينهرني، ، يبكي معي، يصبح وقحا لئيما.. وأنصت لقلبه".

لمقاومة العزلة والانطواء الحارقين، تلوذ الذات المعاقة بضِعفها لتناجيه وتحاوره وتناقشه وترسو على ضفافه، وتستأنس به من وحشة الخلوة والانزواء:

"ما عاد البقاء بمفردي والانطواء على الذات يحرقان وقتي ويحيلانه إلى رماد.. صارت الذات حوارا مستديما ونقاشات حادة ولينة بيني وبين "أحمد".. أصبح ملاذا وساحلا للرسوُّ عليه، وأصبح سمائي وأرضي، إليه أشكو وإليه أستجير، ومعه استأنست الخلوة.. صبر علي وتحملني، ثم صبرتُ عليه وغرت منه غيرة التوأم من مثيله".

وعند اكتمال الرواية، وبلوغ رحلتها الأخيرة، من رحلات التعرف على النفس، والخفي من أسرارها، تشعر الذات المنقسمة بالالتئام، وتهادن الذاتُ ذاتَها، والروحُ جسدَها، والصورةُ أصلها، في وئام وسلام ومحبة وصفح:

"كان 'أحمد' يقف في ركن قصي في القاعة.. أشرت إليه بإشارة وداع، وبدا بناظري يصبح مثل شبح.. كانت على وجهه إشارات الصفح كأنه يقول لي لا أستحقك... بدأ يضمحل شيئا فشيئا.. وبالتدريج اختفى.

لم تكن الرواية في يده بل كانت في يدي أوقع تلك النسخة التي قرأنا معا تفاصيلها وأقدمها هدية للمديرة.

رجعتُ إلى أحمد الأصل وليس الصورة.. أو أحمد المتَخيل من قِبَلي.. وسحر ترافقني رحلتي القادمة".

هل للمعاق أن يحب كما يحب الآخرون، ويكره كما يكره الآخرون؟

يتعلق الأمر في الرواية بحب أفلاطوني ـ من طرف واحد ـ شد البطل إلى معشوقته التي عُلِّقت رجلا غيره: "أرى من أحببتها تضع يدها بيد غيري، وأعرف نفسي أن لا رجاء.."

لقد خلد أحمد هذه المشاعر الفياضة بالحب في لوحاته، كما خلد كافكا قصة حبه الأفلاطوني لفيليس باور في رسائله الشهيرة.

تتعملق في وجه أحمد أسئلة بركانية أمام فشله في تجربة عاطفية مشروعة:

"تقف في صف 'سالم' وتتركني.. هل لأنها لم تجد حبي 'لحمامة' حبا متكافئا؟ أو من حب من طرف واحد؟ أو قد عرفت عجزي التام رجوليا.. لكن قلبي من له يا ربي؟ لماذا خلقتني غير صالح لأية صفة من صفات الحياة؟"

كما يقف الطب والشرع في وجه حبيبين منغوليين، 'سالم' و'حمامة':

"زواج المنغوليين يرفضه الكثير من الأطباء وعلماء الدين إلا إذا وجدوا ثغرة ما أو رأيا يستندون عليه ليفرحوا قلبين ربما حياتهما قصيرة ..

واستطردت [سَحَر] قائلة:

صديقتي... إنسانيا يجب الجمع بينهما، أقلها نعوضهما الحب الذي يفتقدانه بعيون الآخرين والنظرة الدونية من المجتمع.. نحن بحاجة إلى ثقافة إنسانية لنستوعب ذلك.. في مجتمعاتنا العربية للأسف الشديد. لا نعاملهم على أنهم بشر مثلنا، ونتصرف معهم من منطلق النقص، تُرى كيف ينظرون هم إلينا؟".

أمام فزاعة مسوخات الجسد، تقف مسوخات النفس الإنسانية عائقا في وجه المحبة والطمأنينة والسلام، لكن.. أبدا.

(لن تبقى الأبواب موصدة إذا فتحنا قلوبنا للحب، واتخذناه النداء الأسمى).

(أدين بدين الحب أنى توجهت
ركائبه فالحب ديني وإيماني)

د. عبد النبي ذاكر

جامعة ابن زهر ـ المغرب

الرحلة الأولى

(الإرادة هي الفكرة والعزيمة، هي الروح)

شوبن هاور

بحثتُ عنه كثيراً، تركته يتسلل إلي أو حاولت اختراقه لأعرف ماذا أريد، كنتُ أبحث عن الحياة فيه، لعل حياته تساعدني رغم عمرها الافتراضي لمعرفة الخلل الكامن في الخطيئة.. دخلتُ كونه وعالمه من باب صنعته له بنفسي، كل أشيائه سواء الجميلة منها أو القبيحة، كلها من صنع يدي.. خدعني كثيرا، أسهم في اختيار أمكنته وأزمنتها القصيرة، هي قصيرة فعلا لأنني حددتُ لها ساعاتها، موتها، حياتها.. صنعتُ بشرته، لونه، غروره، عناد حلمه، نقيضه الرافض المشاكس.

احتشدتُ فيه وكرد فعل لاحتشادي أعطيته اسمي.. روضته أو روضني، هذا ما سيقرؤه المحتشَد من قبلي ليعرف بالضبط متى تدق الساعة.

لم تغب عيناي عنه، رغم قلقي وارتيابي، لم أرسم الحزن الموشوم بملامحي على وجهه، علما أنه أخذ لون بشرتي، لم أضع عليها شحوب مرضي الذي روضته الحمى لتضيف ضياعا آخرا لضياعي وبؤسي.

ليس ظلي، بل مرآتي، قبحي، انعدامي، عجزي، ولأنه مرآتي غيرته لأراني فيه بلا دمع ولا نحيب صامت.

وقف مزهوا بنفسه بين حشد المبدعين والمصورين والصحفيين، مرتديا رقصات قلبه وفرحه وانتصاره، مثلما ارتدى ملابسه الفاخرة، علما أن لا ضرورة لذلك، حضر في الموعد بالضبط والكلام يملأ فمه، الموعد الذي سنواصل فيه كلانا توحدنا وبوحنا المستكين.

بين ضلوعه أمل مجنون، أو انتفض بداخله في حالة جنون.

فكرة الخروج من الذات إلى ذات أخرى جعلتني أبوح بما لم أقله.. ثمة شخص يهتف بداخلي: - كل شيء أصبح طوع يديك، براقا وجميلا.. هكذا تفعل ابتسامة الانتصار، تضيء الوجه والقلب.

ضوء.. نعم أجمل ضوء لمعرفة العالم هو الكتابة، من خلالها أقف على أولى عتبات النهار وأستدير حول الصباح.

أغمضت عيني لأستمتع بلحظة التفوق على الحياة.. توهج قلبي أشعرني بأن الأرض ملكي.. شيء ما يدور شذاه حولي.. ورد لم تُنبته حديقة.

حينما أمسكتُ بيد "سحر" وقدمتني للجمهور المتطلع إلي لاسيما مصوري التلفزة والصحف، جاهدتُ لأُبقي عينيَّ مفتوحتين أمام الأضواء.. ثم أغمضتهما كنوع من الترويض استجابة للحظتي الحاسمة.. بينما في حدقة عينيه برق انعكاس أعماقه وكأنه يقول: - كل هذا لي أنا، والغبطة تملأ حلمه وواقعه.

خفقان قلبي لا أستطيع اللحاق به، ولساني أشد صمتا من ذي قبل.. ماكرة تلك الكلمة، لم ترأف بي رغم ارتجاف شفتي.

تمنيتُ الخروج من جسدي وارتداء جسد أحمد المنشغل بمغازلة شابة جميلة أخذت ركنا في القاعة.. . لكن عيني صاحب الدار فكتا وثاقي بابتسامة نضرة،

شعرت من خلالها أنني قادر على التواصل مع الآخرين.

عندما اندفع نحوي أوصلني إلى نقطة الزهو، خاصة حين راح يحدث الجمهور عن منجزي والدار الفخورة بفني وأدبي، وتبنيه طبع روايتي والحفل.. عندئذ اندلع"أحمد "ماشيا صوبنا بحثا عن انتصاره بعيون الحاضرين.

نظرتُ إلى الحضور بطريقة مختلفة، ليست تلك التي تقتُ إليها في عالم "أحمد" الافتراضي، بل بطريقة من يشاهد الأشياء فلما تلفزيا أو سينمائيا،

فيه لحظة اليقين الشائك الذي يطرق على رأسي لأبقى كما أريده لي، وأنا أنزع جسد الماضي وأدخل جسد الحياة.

أثارني بهاء خاص.. فتحتُ عينيَّ الصغيرتين إلى آخرهما حتى تشنجت زواياهما.. لم يكن طيفا يطرق بابي.. بل " أحمد" الصغير يقف أمامي

ويمسك يدي بشقاوة الأطفال:- أتيتُ لأعيش داخل روحك.

خرجتُ معه وكأنني على موعد سابق.. مشينا خلف طفولتنا نسابق الريح

ونغازل الحياة بدفء طفولتنا.. قبل دخولنا دارهم استذكرنا أشياءنا الجميلة، دخولنا خزانة ملابس أمه بحثا عن عطر رجل عالق في ملابسها.. ومداعبته

كرش أبيه.. شممتُ عرق أمه الموشوم بالأمومة.. على حذر من أمومتها

ضربته على كفيه وحذرته.

وقفنا صامتين، بحثنا عن إيماءة من عينها ولمسة قمح من ساعديها السمراوين.. قبلتها المشعة على جبين "أحمد" صارت وطنا بكيتُ عليه كثيرا.

تسلقنا جدار الدار مثل ظلين يعدوان غير خائفين من عقوبة سلوكهما.. قطعنا غصن شجرة التين وجعلناه حصانا خشبيا نجوب الشارع حفاة.

في سكون خطواتنا تسللت يدا "أبو أحمد" إلى أذن ابنه تأديبا.. ورشقه بشتائم تلعن أباه.

بينما أمه صارت بحرا، كلما اقتربنا منها ابتعدت.

حين انتابني حزن أكرهه أفقتُ على أصوات وعطور السيدات وصوت مقدم الحفل معترفا بقيمة الرواية، حيث أنها لا تقل أهمية عن روايات كافكا.

في ذروة حديثه أشار إلى الدكتور "محمود" والآنسة "سحر" مستثمرا قدرته على إدارة الأمسية:

- لقد حمل الكاتب عبء روايات كافكا وجسَّد الموضوعات بشكل قريب من نفسية إنسان مقهور ومُعدم وحولها إلى إنسان سوي.

ثم أردف قائلا:

- الكتاب الحقيقيون يترصدون الخطوة الصامتة، ويجسدون الربيع الصافي فيها، حتى يصلوا بنا إلى القمة الراجفة في وسط اجتماعي مخادع لا يعترف إلا بالوهم.. أو بالمخادعين والمنافقين.

في هذا العمل.. اعتراف صريح بالإنسان الذي تجلّت ذاته وأصبحت قادرة على العطاء.

لم يحرك "أحمد" ساكنا، ولم يغويه حديث مقدم الحفل.. بل شدته يدي الضئيلة بأصابعها النحيلة.. جذبته إليها ووضعت يده على كتاب روايتي (الزمن المستحيل).. كلانا أصبح حائرا.. أينا سيوقع النسخة الأولى، الفكرة أم الحقيقة؟ أحمد أم أنا؟

تجاوزنا الأصوات كلها.. وتجاوبنا مع الأعشاب والأطيار

والأزهار.. متوحدين بمغامراتنا.. ضربنا أجراس الأبواب وهربنا متخفين بين النخيل.. قضينا وقتا جميلا نستجمع فيه شقاوتنا ونوزعها بالتساوي بيننا.. على رؤوس أصابعنا وقفنا تحت شباك "صفاء" مصغين لصوت غناء شجي.

افترسنا حلما ثغرها الندي.. تخيلنا مشيتها المتمايلة بثوب شفاف، لا أحد يزهر مثلها.. وأعاد "أحمد" الكلام ذاته.. لا أحد يزهر مثلها أو يتخيل القبلة التي توحدني بفمها.

وأنا أفك شفرة تصلبي عرفت كيف ترتجف ورقة الشجر في الريح، عنادا عرق جبيني، حركتُ رأسي باتجاهين معطلين رافعا رقبتي قليلا مصوبا بصري نحو "سحر" والجمهور متحديا "أحمد" الافتراضي.

هزني بقوة طالبنا مني قراءة مقدمة الرواية:

- أفق يا "أحمد" كلنا ننتظرك، فلماذا التلكؤ والصمت؟

لا أعرف أي اسم يرغب، هل علي تبديل اسمي باسم آخر؟.. الاسم المسطر على ورق الرواية؟

أم أذعن لكلمة يا رفيقي وهي تخترقني مخلفة وراءها جرحا صغيرا؟

غضبه لعدم حضور "صفاء" جعله لا ينتمي إلينا، إنما لأخلاق الوحش.

مع أنها لا تمر إلا في الذاكرة، أجده يحرص على حضورها، رائحتها، غناءها.. أنينه المطلق في أروقة العطش.. ويظل صوتها مسموعا بين أضلعه، وكأجنحة من رباب يهفهف حوله النغم.

يعرف جيدا أنها ليست فتاته، فتاته تنتظر في القاعة، أخبره ولا يصغي إلي، بل إلى خمر صوتها.. قلتُ في ذاتي لأدعه في حلمه، لكنه نكث حلمه متجهما

وقت كررت عليه الخروج من حلمه والرجوع إلي:

- لا أظن يا رفيقي.. فالأمور تسير مسارا مختلفا، تعودنا أن نكون قريبين من بعضنا، لكننا الآن مختلفان تماما.. كنا واحدا وصرنا اثنين، كيف حدث ذلك لا أدري، ومن السبب أنا أم أنت؟

لا شك أنني كنتُ أقاسمك ما تحب وتكره، سرتُ معك حيث أحببتَ أن تكون، والآن سأسحبك من الصوت الصاخب إلى دارنا.. إلى أمكنة جميلة نستمتع بالدفء معا، رغم أن كلينا ضمن هذا العمل: خارجه، فوقه.. معه.. تحته.. المهم أننا ضمنه.

بمساعدتك لي ومساندتي استطعنا دخول سحر خاص بنا.. ألم تكن مجرد جسد بائس لولا دخولي عالمك؟

حين أتأمل إخفاقاتي السابقة أدرك أن الحق معه، وأحس بألم شديد يعصرني بين أنيابه.. أتذكر جيدا ظلام العزلة والانطواء على الذات.. أخرج منها إلى رحلتي الجديدة قادما من صناعة خبز الحياة لأعري القبح.

كمن يقف ضد مأساته أجبته بحركات متلعثمة، بين أصابعي والتواء رقبتي بثقل رأس كبير يجعلها عارية من أية قوة:

- لستُ مبال لهذه الحقيقة..، ليس المهم تثيرني أو أثيرك، المهم أن نتوقف عند هذه البرهة من الزمن وندرك.

- ندرك ماذا يا رفيقي؟

- تدركُ أنكَ من صنعي أنا، نعم صنعي أنا، كنتُ في حاجة الالتحام بتفاصيلك، والانضمام إلى أجزائك الصغيرة والكبيرة.. أنت لم تعش اضطرابي.. هوسي وانفعالاتي.. دفاعي عن نفسي حين أتقاسم وإياك الأب المفرط بالأكل والجنس.. الأم ذات الهجمات الرقيقة والعاطفة الجياشة.

مدرستك الكبيرة وسط المدينة، ركضك بأحذية غالية الثمن،

حقيبتك المدرسية غالية الثمن أيضا، مشاكستك لطالبات المدرسة والطلاب.. حتى سلوكك الغريب وعدم المبالاة في شراء اللعب .

الاحتفال بعيد ميلادك.. عرض الغنى بأطايبه ومشترياته.. كنتُ أشعر بنقصي وضآلتي وأنت ترفع قامتك وتطفئ الشموع، كم أشعرتني بمرارة الضياع والفقد كلما نلت احتضان الأبوين، ونظراتهما بحنانها الملتهب.

كنتُ بالكاد أفرح وأنا أتقمصك.. ربما تلذذتُ بعض الشيء لحظة غمزتَ لابنة الجيران في حفل عيد ميلادك.. لكن اللذة تتساقط كأوراق خريفية كلما تحسستُ نفسي ومررتُ بجسدي المعشش فيه الذبول.

مع هذا.. بقيتَ الكلمات المنطوقة التي لم أقدر على تفوهها بطلاقة، ولم يقو لساني على حركة حروفها، ضمتها، همزتها.. مازالت تعيقني الثاء ويعصى علي الضاد اللعين.. يلتصق بلهاتي مثل الصمغ، فاضطر للصمت لحظة حتى أعبره لحرف آخر أقل لينا منه. السين والشين صعبا المزاج وغريبان جدا، أيهما الأحق في السباق قبل الآخر إثناء محاولتي النطق.

كنتُ أضحك في سري وأقول هذا الفتى مثلي.. لكن سرعان ما تنتصر علي وتلعب كرة القدم بحرية في حديقة منزلكم.. كنتَ تصغي لقدميك بقوة غريبة، خبأت رغبتي بين يديك وتسلقتُ أصابعك باحثا عني.

كنتَ الأكثر سرعة من باقي الأطفال في اللحاق بالمجانين والسير خلفهم.. لا أدري لماذا تستهويك هذه اللعبة الغريبة وأنت تلمظ إليهم بلسانك الطويل.

وحين بلغتَ الثانية عشر راقبتُ سرقتك سيارة أبيك ساعة قيلولته والدوران حول بيتكم وبيت الجيران لفرد عضلاتك أمام صفاء.

ضحكتُ عليك كثيرا وبعمق، ربما بتشفٍ فيك لأنك سارق، خاصة وقت صحا أبوك ووبخك بشدة.. اعتراني سرور غريب فعلا.. قد تكون حاجتي للتوبيخ أكثر من حاجتي لعين مشفقة.

سعادة كبيرة غمرتني في خصم مصروفك لمدة شهر.. خالفت أمك الطيبة القرار سرا ودست في جيبك مصروفا لمدة شهر... كرهتُ المدللين المتمثلين بشخصك، ودمرني الألم العذب خلال مسيرتي معك.

أطلُ من خلالك على اللمس الدافئ ليد حنون، وأشعر بلذة الانخراط في قيمتي الإنسانية. من جهةٍ أخرى أراك تعيش يومك بشكل عادي كباقي الأسوياء، وتتركني أخبئ أوراقي تحت وسادتي... أستمع إلى نطقك كلمة كرسي بشكلها الصحيح.. وبشكل سحري تمر على لسانك كلمة نافذة، أو باب.. بينما تصعب علي النوافذ والأبواب، وأبقى مجرد إشارات لكلمات لا تعرف أين شفرتها، لتستهدف رسالتها وتشير إلى ما تريده بكامل حريتها.

- ها قد تقمصتني كليا ماذا تريد الآن يا رفيقي؟

- أريد منك قراءة مقدمة كتابي دون اضطراب، لقد اتخذ حلمي مكانه ولم يعد غامضا إلي أو إلى الآخرين. تحدث إليهم بثقة، ولا يغرنَّك ضخامة ألقابهم، فأغلبهم نقاد وهم وصراعات مدارس تتحكم فيهم الأمزجة الشخصية، أو العلاقات الفوضوية غير الخاضعة للجمال بقدر خضوعها للغرور.

لا ترتعش أو تخجل.. الإبداع يخلق الإنسان وأنا خلقت عالمي، هيا اقرأ وكن أكثر منهم قوة. افرد قامتك واستقم، صباحك نقي الشروق فلا تطرق برأسك أرضا كمن يعيد ترتيب الأشياء مجددا.

حدَّق بنظرة مليئة باللؤم:

- اخلق طقسك ولا تكترث لشيء سواك، ليس هناك مجال للخجل أو التردد. اقرع بابك واعبر عتبة الكلام.

غريب!

- من منا يحرض الآخر على القراءة؟

لا تسخر مني وتضحك باستهزاء.. - الطريق الآن تؤدي إلينا.. وأنا مدمنٌ عليك.منذ أن خلقتك وأنا أحتسي وجهك.

وافترض أننا متقاربان رغم اختلافنا كما أسلفت سابقا "يا أحمد" وأقوم أنا بأنسنة الأشياء بطريقة فنتازية.. واضعا أسباب اختلافنا وتشابهنا.. حتى الفوضى النافرة فينا نستدرجها هنا، إلى قلب هذه القاعة، ونخلق ألفة بيننا، وبين الحضور.

أمسكَ بخاصرته وفرد طوله أمامي.. مؤكدا تشابهه لي رغم الاختلاف، مصرا على التشابهات المبهمة والحقيقية، بارتداء ملابسي بألوانها ليقول لي إني معك لأنني فيها أكونك.. رفع قدمه قليلا عن الأرض وغمز بمكر:

- أليست مصادفة أن يكون لون حذائي كلون حذائك؟ أنا أظهر بريقه بينما أنت تخبئه في الملاءة المرمية على جسدك وقدميك.

هل تتذكر غيرتك مني ليلة العيد وأنا بكامل زينتي وقيافتي؟ هل تتذكر تلك الساعة أم أعيدك إليها؟

تحركتُ وكأنما الحياة جمعتني صدفة بكرسي متحرك :

- أية ساعات بربك ونحن الآن في حفل توقيع الرواية؟

- لا تهرب من كلامي، ففي كل يوم نجلس على الفطور معا أراك تنظر إلي بعين الريبة، علام الريبة وأنا أجلسك قربي؟

تشابكت الكلمات بين أصابعي ذهابا واختل رجوعها.. صارعت جسدي محرضا:

- لا تهدر الوقت وتحرك قليلا، أنت عوني.. ضربت عليه بكل قوتي الواهنة:

- لا تكن عدوي الآن وقتك.

كنتُ كلي إشارات تتخبط بسيرها، لكنني استطعت الصراخ بصوت خفوت طاويا برد لساني المخذول:

- أنت لا تعرف يا "أحمد" ريبة المعاق بيديه والملعقة ترتجف بين أصابعه، ونصف اللقمة ينسكب على ملابسه، وربعها عالق فوق فمه، واليسر القليل منها يطرق باب فمه.

أخبرتك قبل قليل أن لا أبواب لي.. كما لا تعرف مدى نظرة العطف والإشفاق كيف تمر مر السكاكين في الروح والجسد.

خذ القلم واكتب اسمك صحيحا على النسخة الأولى واقرأ.

أحسنَ التصرف باقترابه مني، تكلم برفق لمشاهدة العرق الغزير على جبيني:

- رفيقي الكاتب:

- أراك تؤكد على توقيع الرواية ونسيت لوحاتك ملأت القاعة بالجمال.. نحن في حفلَين يا صديقي، وكلاهما لي.

- نعم.. نعم.. كلاهما لي، أنا "أحمد"، وليس إليك.

- لك.. يا "أحمد"انتبه لما تقوله، متى كنتَ الرسام والراوي؟

- إنها لي أنا.

همس في أذني : - لسنا في موضع خصام حول الأحقية فيهما يا صاحبي، وأينا "أحمد" الحقيقي.

أشرتُ إليه بل نحن فيها.. محاولا استرجاع لحظات قاسية في طفولتنا:

- هل تدرك لحظتي الحرجة ومعاناتي وأنت تقف أمامي بطولك وتشير إلي بإصبعك كي أنهض وألعب معك.. وتستفزني شتائمك، أجاهد لأرد عليك بمثلها على الأقل وليس بأكثر منها؟

كنتُ أعض على شفتي بكل قوتي وأستعير من لساني قدرته الكاملة لينطق بحرف واحد يبين قبحك ونقص فعلتك.. كانت جبيني تغرق بعرقها وتُغرق رقبتي معها، فيما أنت تنط من مكان إلى مكان، وتسحب الكرسي المتحرك بقوة لتقودني كيفما ترغب، إلى الجهة القريبة من سلوكك، ونزوتك الصبيانية.

كنتُ أرى الناس حولي يكتسون بجلود قاسية، ووجوه حمقاء، وعيون حمر لا تُدخل الطمأنينة إلى نفسي.. بينما تراها أنت هادئة ومحبة.. لسبب بسيط جدا.. هم يشفقون علي ويداعبونك كإنسان سوي، غير ما أنا عليه من بؤس، تكون أنت الفرح المعبِّر عن انفعالاتك بكل حرية.

- نعم يا صديقي، أمي انتبهت لعدم حبك للرأفة إنما حبك لقلوب بشرية تمتد إلى عمقك وتكتشف النقائض فيك.. الموت والحياة.. الصمت والكلام، الضعف والقوة.. تصرفتْ معك خلال رحلتنا على هذا الأساس، واستطاعت الانتصار على ما تخبئه بصدرك في كل زيارة لبيتنا.

- ههه، يا صديقي الأثير.. لو عاشت أمك يوما واحدا دون معرفة أمها، اسمها، شكلها، هويتها.. لأدركت مدى قوتي وعرفت أن الله يضع قوته في أضعف خلقه.

لا أحد يستطيع وصف جرح الروح بيد أب اعتبرني عالة عليه ورماني في دار الرعاية الخاصة، وكأنه في سلوكه هذا ارتدى درعا واقيا يحميه من عاره.

ليته ارتدى الواقي ساعة نزوته وخلصني.

يشدني الحضور إليه، بل يحتم علي القراءة ولو بالإشارات، "سحر" بمقدورها الترجمة فعلام هذا التلكؤ، ما بك اليوم يا "أحمد".. حتى "سلوى" استغربت منك، عرفت فيك القوة والاستعداد لمثل هذه الوقفة.

بهذا أخاطب نفسي، استفزها لتتحرك.

لكنها مصرة على هيبة الموقف، لا بل الشرود منه استذكارا ونحن لسنا في قاعة استذكار، بل في حضور ومصورين وصحافة ومهتمين.

احتضن "أحمد" الرواية بكفين مرتعشين، تنفس عميقا وكأنه خارج للتو من صندوق، شرع يقرأ مع نفسه سطرا ثم يتهجاه حرفا حرفا ويقرأ بتلعثم.

استغرب من لغة المقدمة.. هي بصوت شخص آخر الآن.. قد يبدو مليئا بالمفارقات لو بدأ، وقد ينفصل عن ذاته، ويتحول إلى ذات أخرى، أو لا يدري ماذا سيكون وهو يهاجم نفسه بشخصية ثانية.. والسقوط التدريجي في التقمص.

كانت المقدَمة تقول:

أشعر بأنني المقذوف عشوائيا في طريق الحياة، أحاول جاهداً معرفة الأشياء من حولي وأعطيها هيأتها التي أريد.. كأنها دمى أوجهها كيفما أشاء، ربما حاجتي تدعوني إلى ذلك التصرف الأهوج، أو رغبتي في أسرة كباقي المخلوقات الطبيعية وليست المعاقة.أحاول إعطاء الزمن مستحيله في استدعاء خيالاتي الغريبة.

لست أدري هل أنا في كابوس أم حقيقة، كل همي حرية الحركة وسهولة الكلام. يؤلمني جدا إيقاظ شخصا آخر لأدْخله.. جسده.. سلوكه.. تصرفاته، معايشته لواقعه.. كل شيء يؤلمني حين أتلمسه في الظلام باحثا عنه قانعا نفسي بقدرته على سماع خلجاتي كلها.

لا شيء حقيقي في حياتي، حتى معرفة أمي.. شكلها.. صوتها.. ثديها.. ملابسها.. شعرها.. ضحكاتها.. زينتها.. شكل الأمومة وطعمها.

كل الأشياء تأخذ بالاتساع وقتما أتخيلها.. أراها تتسع.. تتسع، ثم تخبو مثل طيف.

في هذه اللحظة بالذات.. أشعر ببرودة بلاط الغرفة، صرت مثله بمحاولتي سبك أحلامي وفق قوانين أدبية لتأخذ شكل رواية.

أشعر كأنني في خلاف مع نفسي.. مثل فرس يترنح في الريح.. أو مثل من يخترق ممرا ضيقا ليصل إلى نهايته.

رفعتُ أصبعي ملوحا بالسلام.. رسمت تموجا في الهواء كتموج ينبوع، تدفق ماؤه على باقي أصابعي.. تكرر السيلان وتعددت الإشارات والحركات لاستكمال التحية.

علا التصفيق أكثر من ذي قبل وتكرر بعدد ابتساماتي وحركاتي.

أبعدتُ "أحمد" الآخر عني قليلا وببعده صرت طفلا مهيئا للغناء.

لستُ الآن في عطش الذات بل في ارتوائها.. قلت هذا وتلألأت الفرحة ترسم شكلها على ملامح وجهي المتعب.

الرحلة الثانية

نحن الظامئين، علينا أن نتخيل أننا أجنحة

أجاهد لاستخراج الكلمة من أقنعتها لتولد كلمة أخرى، أحاول العثور على ما يحرر نفسي مما يكابده اللسان لتقف الأكف بصف كلمة عاصية.. أصنع منها ولو حرفا مترددا ينتظره الأصدقاء والآخرون.. دقائق متأنقة بحرارة صوتي.

أنفاس تصعد وتنزل والعيون تحدق.. إذا ما أطلق قلبي أنينه وأسعد دقائقي سأعاقب نفسا لم يرعد الضوء فيها.. سئمتُ جملها المعزولة وأغاظني الانتظار.

أيقظني "أحمد" ليزيح عني غيوما هاربة، أشياء تتكسر في صدري.. هزني بقوة لأمتطي أجنحة الوقت وأحلـّق بأفكاري التي انطلقت عاليا في هواء صاف صاعد إلى أعماقي.

- ما الذي يتعين عليك فعله الآن يا أحمد؟ أنا لا اؤمن بالعجز، ولحسن الحظ أنني لا أطيقه إطلاقا.

- قم واقرأ يا صديقي أولى ومضاتك.

استسلمتُ لخدر رهيب خائف من توحدي بـ"أحمد".. بدأ يقرر حضوره ومغادرته في أي وقت.. رغبت أن يدعني أترجم شكل المقاعد وكوؤس الشاي بيد سيدات جميلات، وسادة

يجمعهم بي النداء الإنساني.أشرت إليه بأنني إنسان نزيه لم أسبب أذى لأي أحد، لكنه ألغى المسافات بيننا وراح يؤكد:

- ليس هذا ما أريد التحدث به الآن، سأتركه حتى تحين الفرصة إليه، لكن أريد أن تستمع إلي جيدا.

لم أرغب في الاستماع إليه.. دعوتُ كل حروف النداء وتغرغرت شفتي باسمه:

- لن استمع إليك، ثم لا تنادني منذ اللحظة باسم صديقي.. لا تنس أبدا ما كانت تدعوني به "سحر".. أطلقت علي اسم"عنقود" كوني أتكور حول نفسي مثل عنقود عنب يضم حباته إلى بعضها ويتدلى.. هكذا كانت تراني من وجهة نظرها الخاصة.. ولفرط طيبتها وحاجتها إلى حنان مثلي، نذرت نفسها لتهبني ما افتقدناه معا رغم صغر سنها.

- منذ اللحظة تذكَّر أنني "عنقود" ولا يأخذك التوهم بعيدا وتتصور أنك قادر على تحريك الرسومات كما في أفلام الرسوم المتحركة.. ببساطة جدا.. أنا من يحركك.

كيف يريدني هذا الأهوج أن أكون.. الكلام مؤامرة الآن كما مؤامراته المتعددة، يعرف ما بين عينه وعيني، لهذا يستفحل فيه السؤال:

- ما بك يا صاحبي اليوم تصب غضبك علي؟

اعترف أنك لا تستطيع التخلي عني.. ولولاي لما أصحبت رساما وكاتبا تفد الوفود إليه.

الخطوة الأولى التي يجب تجنبها يا صاحبي هي الافتراق عن بعضنا.

والخطوة الثانية من منا يبدأ بالقراءة.

- لا تنادني بـ"يا صاحبي"، أنا اسمي "أحمد" أيضا لكني

أحب اسم "عنقود" استجابة لرغبة "سحر" فنادني به كي نبقى أصدقاء، وسنرى.

- سنرى ماذا يا عنقود؟

- سنرى من منا سينتصر على الآخر في النهاية.

- لسنا في حرب، ولستُ معك في هذا التصنيف.. أنا كل تفاصيلك.. أعرف وجهك، عينيك شعرك، يديك كلك أعرفك.

أعرف كيف تفترسني وتحول بينك وبين الضعف فيك لتستمد مني قوَّتك.

كنتُ كافة أصدقائك والأقربين إليك.. لم تشأ أن يراني أحد معك في الدار حتى أقربهم إليك، وأعني "سحر".

ليس لديك عدو غير عجزك، والفقد الأبوي... أنت أحمد ليس إلا.. وقعت الرواية باسم أحمد ولم تذكر اسم أبيك.. لماذا فعلت ذلك وهو موجود على أرض الواقع؟

- هذا اعتراف صريح بأنني كاتب الرواية ولست أنت؟

سأحدثك إذاً عن أمور تخصني، والدافع الذي جعلني ألجأ إليك.

نعم فضلك كبير علي.. فالسفينة لا تنكر موجا يرفعها عاليا عن جور الماء، لم يكن لي خيار غير اختيارك. كان قلبي متيقظا وخلاياي أشارت إليك.

فتح عينيه إلى آخرهما وهو يصخ السمع لإشاراتي، وقف مثل طفل يتابع صقيعي، لكنه انتفض فجأة:

- قبل الدخول فيما يخصك دعني أتفحص وجوه الحاضرين لعل بينهم وجه "صفاء" لم أعلن لها عن حبي رغم محاولاتها لسماع كلمة حب مني.

- قلتُ ألف مرة لن تجدها، فهي من أوهامك أو من أوهامي أنا.. بينما من أحبها مع الحاضرين، ويدها بيد غيري.. تخيل أي عذاب أعيشه.

مع ذلك هي اسمها "حمامة"..

- ههه ما هذا الاسم الغريب؟ حمامة؟

- معك حق.. فأنت دخلت عالمي بعد حمامة.. في يوم اتخاذي قرارا مهما لأصبح شخصا مختلفا غير ما كنتُ عليه.. جاء التغيير من تلقاء نفسه.. وبمساعدة "سحر" لولاها لما اكتشفت قدراتي الإبداعية.

ولولاها لما حدثتني أنت.. لا يأخذك الغرور بعيدا.. فأنا من لحم ودم عظم.. وأنتَ شيء آخر.. صفة أخرى.. قد تكون غير البشر، وقد يُخيل إليك أنك تتمتع بصفاتي... ما يثير الضحك الآن أنهم جميعا ينظرون إلينا ليعرفوا فيما إذا كنا حقيقيين أو أشباه بشر.

عندما كنتُ أصغر سنا كنتُ أشعر بالخذلان والخوف، وتنتابني قشعريرة تربك كل أعضاء بدني لمجرد التفكير بأم، ميتة.. أو على قيد الحياة، أو بحضن رجل لا أعرفه.. أوقد يكون لي أخ جميل.. لا يهم أنا الآن على استعداد للتخلص من هذا الهوس.

سابقا لم أعلق آمالا على نفسي.. فلا أحد يسأل عني ولو ضئيل الحجم مثلي من أسرتي.. تساءلت كثيرا:

- لماذا؟ لماذا أنا بالذات أكون هنا؟ولماذا خلقني الله معاقا؟هل يعاقبني على جرم لم أفعله؟لماذا لا يعاقب الفاعلين ويحررني من قيد جرمهم وعقابه؟

وبلا جواب أرجع إلى نفسي محروما حتى من رد يشفي غليلي.

تخليت مجبرا عن تساؤلاتي لأنها عقيمة.. وعندما قررت اختراق الحواجز فيَّ أصبحت لا ضرورة لها... لأنني عثرت على إنسانة تفهمني، وتحثني على اكتشاف الذات في الإبداع.

ولكثرة ما فكرت فيكَ يا "أحمد" قررتُ الانتصار على خجلي واغتنام الفرصة كي أخلو معك.. تعثرتُ في البدايات.. تلكأت أصابعي في اتخاذ قرارها وتعيين النقطة الأولى للبداية.

حين تلهو أمامي في غرفتي أفقد رشدي، وأفقده أكثر باقترابك من "حمامة"، فعلا أجن.

أهملتك كثيرا وتركتك تلهو على طريقتك، ثم عدت إليك لأهبك صفة مني، لم أفلح في ذلك لاختلافك عني في كل شي.

ترددتُ كثيرا في إعطائك اسمي.. أبتعد عنك، فتقترب مني، وتتشفى في انطوائي على نفسي، إذ أنتهي إلى صمتي المقدر لي من الحياة. كنت تعارضني عندما أبدأ بالرسم.. وكنتُ أخشى عليك من هوسي.

هناك أكثر من سبب يستدعي الانضمام إلى بعضنا.. وهناك أسباب علي تأكيدها لأثبت لأب تخلى عني أنه وأمثاله البؤساء ولست أنا.

معرفتي بأمي عقيمة، لا أدري في أي عالم هي.. كتبتُ لها رسائل كثيرة ومزقتها.. كلما بدأت بكلمة أمي أثارت اشمئزازي، وشعرت بحاجة إلى بتر أي عضو من أعضاء جسدي.. رغم حاجتي الماسة إليه.

سطا عليَّ الخجل من شكلي مثل غول يفترس نفسه، انتفاخ بطني وكبر حجم رأسي مقاسا إلى جسدي النحيل جدا، يداي الضعيفتان وأصابعي النحيلة.كلي قبيح!!.

الشعور بالقبح أمر بالغ الوجع، ولعل ذلك الشعور جعلني

راغبا في الانزواء بسريري دون الآخرين، رغم أنهم أقل مني وعيا ومعرفة بما يدور حولهم.

أحبهم جميعا وأمقتهم في الوقت ذاته، لأنهم يصرون على إخافتي بأصواتهم الشبيهة بأصوات عواء الذئاب ليلا.. إلا من يملك نصف عقل.. يريحني جلوسه قربي.

الطفل المختصر أنا، وأنا الشاب الأكثر اختصارا، أموت باليوم عشرات المرات، أتقوس حول نفسي مثل دلو ممتلئ بالطحالب.هل جربت الموت على دفعات؟

لا أعرف من أكون في عقول من لم أرهم وأشتاق إليهم، حزين يتوق إلى وطن أو أسرة، لا أرى ضرورة للضحك، لم أألفه أبداً، كما أني أشكل عبئا عليه.

- يا "عنقود" يا صديقي العزيز على رسلك أرجوك، دعنا نهنأ بحضور النقاد اليوم.

- لا أحبهم يا "أحمد" هؤلاء أكثر إيلاما من المبضع.. أشبههم بالمنغوليين الذين عاشوا معي بنصف عقل.. منغوليون ومباضع ليس إلا.. صدقني ليس كلهم نقادا.. وليس فيهم أحد سيتعرف على لوحاتي وروايتي مثلي ومثلك.. لأننا عشنا التجربة بكل قسوتها، حلوها ومرها.. وهم جاءوا على الحاضر.. ربما فيهم من سيقرأ بعض الشيء بعين ثقافته النقدية، أتمنى ذلك يا صاحبي، والآن دعني منهم.

- يا صاحبي؟؟هل تبادلنا الأدوار الآن يا "عنقود"؟

عجيب أمرك!

- لا تغضب مني يا "أحمد".. كلانا له دور وسينتهي.. لم يبق أمامنا من الوقت الآن فافتح الصفحة الأولى من الرواية وسترى... في الصفحة الأولى تركتها تسرد حكايتها أولا، ثم

تدخلتُ بعد ذلك بطريقتي في الصفحات الأخرى.

- هي مذكرات داخل مذكرات إذا؟

- لا تستعجل الأمور وأقرأ.

- وهل هذا وقت للقراءة، هل جننتَ يا "عنقود"؟

تشير الصفحة الأولى إلى:

*

أية كلمة أدونها في مذكرتي ستبقى مجرد حروف شاحبة.. إذ أنني أبحث عن ظل مثل أرض بور، أبحث عن أي كائن إنساني أقدم له نفسي على أنني إنسانة لها رغبة في الحياة.

الليل تمكن مني كليا وصبغ قلبي بصبغته.. ومناديلي صارت غيمات.

في وحشته أتأمل نفسي منكسرة، بالكاد أغفو إن رن جرس النوم، لا أرى الغد صديقا، كنت أخاف الخروج من غرفتي لقضاء حاجتي، وكأن هناك مَن سيسرق طفولتي مني أو يتبع خطوي.

ثمة أخيلة تدخل غرفتي.. أهابها كثيرا.. كأنها قادمة من عاصفة، تعبث بأشيائي وتدخل خزانة ملابسي.. أتوجس من الحلم وأخشى من اتساع الباب ليلا، أعلم أن ثمة ظلام يترقبني.

أهمسُ لنفسي فيرجع صدى الهمس إلى صدري.. كيف تحترق الروح داخل جسد طفلة تخاف على طفولتها، من دقات ساعة معلقة على الجدار؟

تُولد أيامي كما يولد الطفل المشوه، لا ينتبه إليه إلا غراب الوقت لينعق في أصباحه وأمْسيته.

وجودي مع أربعة إخوة صبيان وزوجة أب ما عاد مجديا.

كل الأشياء تبدو مرخية مثل ضفائر منقوعة بالزيت... حياتي

ليست بذات التعقيد الذي يثير أي شخص لكتابة مذكراته.. لكنها رغم ضيق حلقاتها تعني لي مثل خلل مرافق لأيامي وعلي إصلاحه.

الزمان فارغ كما الأرض التي أمشي عليها... الوجوه، الأشخاص، الإخوة الأربعة، وزوجة أبي وزوجها، فراغ يجر فراغا.

جثمتْ على صدري كل أبواب البيت، شاءت الصدفة أن يموت أبي وهو بين أحضان زوجة متكبرة انتقاها من بين عشر نساء في الحارة، بعد وفاة أمي وأنا في الخامسة من العمر. خلف منها ثلاثة أولاد واحتضنه القبر.

جزأني الزمان إلى فوضى وكأنني لستُ أهلا للحياة.

لم أرجع بشيء من المقبرة، سوى بتراب عالق في ثيابي.. خُيل إلي أن الموت رجل خسيس أو تربى على يد إبليس، كم حذرتني أمي من الأبالسة بحكاياتها قبل النوم، لكنها لم توضح لي أي الأبالسة الموت.

توسدت الأرض بين قبرين باحثة عن ابتسامة الرضا في عينيها، انتشلتني يد زوجة أبي من وهمي وأرجعتني إلى إخوتي أحتمي بزلزالهم.

شكل موت أبي صدمة كبيرة على قلبي الصغير، لم يسمع عتابي في الليل والنهار. بتُّ أتفقد الحوائط، وأصغي لصوت الصور المعلقة على جدران غير مهيأة للجواب على كل تساؤلاتي، عن سبب الفراغ الذي تركه لي الزمن، وأنا أضع قدمي على سلَّم الحياة.

العيش بين إخوة من زوجة أب مدينة أشباح، ووحدي وئيدة بيد قسوة تفننت بتعذيبي بعد زواج زوجة أبي من جارنا وإنجابها أخا لإخوتي الثلاثة.

الزمان والمكان طبول تقرع فوق رأسي، ظل يخترق باب حجرتي، يفرد أضلعه على أغطيتي وعلى الأرض والحوائط.. له هيئة غراب.. حين بانت عليَّ ملامح الأنوثة وأصبحتُ ثمرة يانعة يشتهي قطافها شباب الحارة، عرَّش الظل ليحيل حياتي إلى جحيم حقيقي.. غرس منقاره في قلبي وجسدي الغض.

أصبح كل أفراد البيت آلهة وعلي الخضوع لإرادتها لبقائي معهم كمثل إله يهب الجنة وعلي الانحناء برضا.. الرب الكبير لم يشأ زيادة نفقات الأسرة بالصرف على دراستي أسوة بإخوتي الذين تكفلت بهم أمهم، إنما العم "فاضل" تكفل برعاية ابنه والعطف علي.

قربان آخر لابد من تقديمه مع تحية الصباح.. فأضحيتُ مثل مصباح متخم بالضوء ولا ينير.

الأشتية والأصياف عقدت عزمها على هدمي، كلما اقتربت من شابة تسكنني أبعدتني عنها. أحدث الفراغ وكأنه لي وحدي، لا أحد يعتذر لي إن أساء، بل أنا من عليها الاعتذار.

لذا.. قررت التحدي والاهتمام بدراستي.

ما ألاقيه في هذا البيت اللئيم يحصد سنين عمري الفتي ويرمي زرعي لكلاب الليل.

أسهر وحدي كما هو أكلي ودراستي.. رغباتي.. رحلة الطفولة القصيرة ورحلة المراهقة... كل أسفاري باتجاهي وحدي.

أصبحت هادئة مثل ركام قديم، أكتم أنفاسي لمرور أحدهم قربي، خشية نيل وابل كلام يخدش إنسانيتي.

عندما أوشكت سعادتي على الرحيل أصبحت الدراسة عالمي الوحيد.. أعود منها منكفئة على ذاتي، أحجب نظري عن كل ما

هو جميل في البيت فهو لهم وحدهم ولي صمتي. . . قيثارتي الهائلة لي، أطل على حدادها وتطل عليْ.

عاندتُ أرضي الخشبية وفراشي الصمغ لأكمل دورة تدريبية في معهد لرعاية المعوقين وذوي الاحتياجات الخاصة كي أعتمد على نفسي. . وكأن عنادي وترقبي لهذه اللحظة أصبحا طوقا للنجاة.

اعتذرت مرارا لنفسي لخذلانها من إخوة جلادين، وزوجة أب تهوى التعذيب. . مصاصة الدماء حكمت علي بامتصاص دمي بالتدريج.

لن أدع حياتي تتهشم بشظايا الوقت. . بوسعي عمل المستحيل، وإن كانت الوظائف شحيحة والوضع الاقتصادي الذي شل اقتصاد البلد. . أنى أوليت وجهي يكون الرد ذاته" قمنا بتقليص عدد الموظفين بسبب الميزانية الجديدة.

أجدَب مطر الرزق ولم تنضج الحياة مثل خبز ساخن. . . وإن أمطرت فبوابل الفقر والعوز كأنما توزع مأساتها على الضعفاء. . هذه الأزمة الكونية جعلتني أطرق الأبواب بلا نتيجة.

في الواقع كان الدافع الأكبر لأزمتي الهروب من العم "فاضل " وتحرشاته المتكررة، خاصة بعد أن تخلد زوجة أبي إلى النوم، أو ينتهز فرصة خروجها لزيارة صديقاتها، يشجعها على ترك البيت ليتهيأ لمعاكستي. . أما الإخوة الأربعة فكل له عالمه الخاص، لا يجتمعون إلا على المائدة. . ، وأحيانا كثيرة يفترقون على شجار أو مجادلات حادة تؤدي بهم إلى خصام. يخرجون متخاصمين ويرجعون إلى الدار ليلا مثل خيوط ضبابية.

سنتان وأنا أبحث عن عمل دون جدوى، فراغ الأمكنة لا يهبني غير صدمة فراغه.

في النهار أخشى مشاجرة إخوتي وأمهم، وفي الليل تتلمس

جسدي يد مرتجفة.. في العتمة، أسمع أنفاس صاحبها وأختبئ في الملاءة.. يد عنكبوت وأنفاس عنكبوت.. يهرب خائفا لمناداة أمه الثعلب.

الابن الرابع للزوجة النسر.. أهرب من تحرشات زوجها تصدمني تحرشات ابنها.. طالما تخيلته جنيا بأذنه الطويلة ومنخاره الطويل كأبيه.

العالم مليء بالكراهية والحقد، والحب يتلاشى هاربا من أنصاف البشر، فتصبح الآلام لذيذة وإن كانت مشكوك بنياتها، والأطباء عاجزين عن مداواة الوحوش في نفوسنا المريضة.

ازداد ولعي في قراءة الصحف اليومية بحثا عن عمل، لكنني أصدم بالعناوين.. أزمة مالية.. أزمة سكن، أزمة وظائف. خيل إلي أن كل أزماتنا سببها الإنسان.

كل شي من صنع الإنسان، حتى بؤسي وأزمتي من صنع الإنسان، بسببه مازلت غير قادرة على اتخاذ وقفة الواثق من نفسه.

العالم من حولي يصر على جعلي إنسانة ضد نفسها، أو شخصا آخر لا أعرفه... زادني ذلك إصرارا لخوض المعركة ضدهم جميعا.

سابقا حين يعود أبي من عمله المضني في سكة الحديد.. يصهره التعب والنحول.. يخفي تعبه حال دخوله الدار وينشر البهجة في نفوسنا...، فتهمس في أذني ضحكات أمي وهي تعد الغداء لنا نحن الثلاثة.. غير أن زائرا فاجأنا وأخذها منا.

يا لأبي المسكين.. ليته ينهض ويرى كيف أخذت صورته حيزا في خزانة الحمام مع صورة أمي.. وليته يرى التي خان أمي من أجل نزوة معها ماذا فعلت، وكيف تخرج الكلمات من فوهة فمها الكارثة كلما رأتني أنظر إلى الصور... تسحق كل الكلمات تحت لسانها وتستخرجها مثل مخلفات بالوعة.

بعد موته تزوجت في غرفة نومه، وعلى فراشه تمرغ الأكرش ذو الأنف الكبير، الذي كانت تهرب إليه كلما غاب أبي في عمله الليلي.. حين مرغتني الحياة بترابها انتبهت لأخي الثالث، وعدم شبهه لأبي، بل يشبه زوجها وابنها منه.

كم أطلت البقاء في الحمام بحجة الاغتسال، احتضن الصورتين وأعاتبهما على غيابهما.. تتصاعد الصرخة في صدري وأكتمها مثل مَن يوخز نفسه بالإبر ويلغي صرخاته.. إنه انتحار بطيء يخون الجسد والروح.

كنت أرى السماء أما حاملا بالجمال، وكائنات مثلها تملأ الكون تبعث الضوء والصفاء في النفوس.. عيون السماء الزرق تطالعني بحنو، لكن بعد فقدي الأبوين لم أر الصفاء في الوجوه والنفوس.. بل أفاع تلتهم الإنسان فينا.

لطالما تساءلت هل هذا من صنع الإنسان أم من صنع الأقدار؟

كان القدر يتفنن في أسلوبه المترع بالحقد، يقدم أي شيء من أجل ضياعي.

آلمني جدا بيعي قلادة أمي، كنت أشم فيها رائحة رقبتها، لكن العوز أرغمني.. وتخصصي برعاية ذوي الاحتياجات الخاصة تطلب ذلك.

صممتُ على استخراج الحلم من قضبانه.. لا أعرف أهي الصدفة أم هكذا قرر القدر منحني بارقة أمل، ويجود علي بقطرة من غيثه.

في بحثي المتسمر عن وظيفة، عثرت في الجريدة على عنوان لوظيفة في دار غير حكومية لرعاية ذوي الاحتياجات الخاصة والمنغوليين في قرية نائية.. فأسرعت على الفور الاتصال بهم،

واتفقت مع المسؤولة على موعد للمقابلة. . . بدورها أكدت أنهم فعلا بحاجة لشابة ذات اختصاص.

حينئذ سألتها عن إمكانية قبولي في الوظيفة، أجابت:

- سنرى حين نلتقي.

ودعتُ الوجوه الحاقدة وملأت حقيبتي بما يقي جسدي من مستقبل مجهول. . خبأت الصورتين في جيب الحقيبة الداخلي وغادرت.

كانت مسؤولة الموظفين لطيفة إثناء المقابلة، وعلى الفور وقعتُ معها عقدا، أفرحني شرط المبيت في الدار لرعاية مريض لا يقوى على الحركة دون مساعدة.

أهله مقتدرون، فارتأوا تعيين مشرفة خاصة له.

لم أسأل عن الراتب، مغادرتي البيت تعني الدخول إلى عوالم الجنة وإن كانت في قرية ومع معوقين.

الرحلة الثالثة

لن تبقى الأبواب موصدة إذا فتحنا
قلوبنا للحب، واتخذناه النداء الأسمى

في قلب الصيف، تتلصص الريح على أشجارنا لتصنع منها لصا يطرق الأبواب، يحطم النوافذ وهي الملجأ الوحيد لنا. ولا تُبقي غير الأزيز.

يبقى الشارع الصديق الأقرب إلينا، يهدينا رسائل شفافة ويثرينا بحكايا العابرين.

الحكايات كثيرة يا "أحمد" تتداخل مع بعضها لأنها تعتق طهر الألم، وتعبئ صهيلنا بكؤوسها، لكنها توحد سرا بيننا وبين الليل، إذ لا يعرفه إلا ذائق الألم.

- تداخلت القصص لديك فعلا يا "عنقود"، هل تشعبت القصص في روايتك؟

- بل هذا جوابها.. طلبتُ منها ذات ليلة أن تحكي لي عن سبب مجيئها إلى قرية صغيرة في دار ذوي الاحتياجات الخاصة، وهي مازالت في ريعان الصبا. ورغبت أن تكون بداية معرفة القارئ بنا نحن الثلاثة... تصورت في البداية أنها تريد تسليتي، فوجدتها بسردها في حاجة لمن يسمعها.. من وقتها قررنا الإنصات لبعضنا

والاستماع لصمتنا.. تعانق صبرنا ليخلق فرحا جديدا.. هي في البوح وأنا في الفن والإشارات.

لذلك اعتبرتها الصفحة الأولى، لأنها بداية حكايتها وذوبانها في روايتي.

كثيرا ما ينتابني غضب سخيف من أي شيء، بالأخص من تناول وجبة الطعام، رافضا حتى رسم إشارة لها دون سبب.. أرغب بإثارة الحزن فيها والقلق.. ربما هو نوع من الدلال عليها.. أو أعاقب نفسي جوعا لقبحها.. أحيانا أجيب عليها بمضض.. أرسم في الهواء شكل حروف تجمعها بطريقتها لتتفهم لغتي البكماء.

ولحسن حظي هي من النوع الذي يتحلى بالصبر دائما.

الصِلات بين الصحيح والمعاق عبارة عن تصورات بالغة التعقيد وكثيرة الشك والريبة.

اعترضتُ في البداية على ما تطلبه مني.. ومع هذا رغبت في الاستماع إلى حديثها بشغف مجنون.. أتخابث وأدير ظهري إليها.. لكنها تستمر في السرد لعلمها أن هذا يريحني.. ربما يؤلمها سلوكي.

كلما رأيتها تدخل غرفتي، تختلط الأمور في رأسي والكلمات لا تأخذ شكلا معينا، وكلما أدرت وجهي صوب النافذة رأيت الأشياء مشوشة.

بإصرارها على تحملي تُشعرني بالخجل من نفسي، ومن تفاهتي غير اللائقة بشابة جميلة ورقيقة.

لا يجب التصرف بوقاحة مع من يقدم العون لي وأنا أعقلهم وأكثرهم موهبة. ماذا سأترك لأنصاف العقول؟

هي جنى عليها الفقر، وأنا جنت علي أسرتي، يعني كلانا في الفقد سواء.

تمنيت الاقتراب منها أكثر، أضع رأسي في حضنها، لكن عمرها لا يؤهلها لتصبح مثل أم تلعب بشعري وتقبلني على جبيني ووجنتي، ثم تمطرني قبلا حنونة... كم تمنيت، وخشيت من الاقاويل لتقارب العمر بيننا، ولظهور سمات الرجولة على ملامحي رغم تشوهها، ضمورها في أماكن متعددة وبروزها في أماكن غير لائقة.

أحببتها بلا مواربة لأنها كانت تقودني إلى عمق الأشياء، ساندتني في كل شيء حتى في حب "حمامة". ساعات حمقاء في حياتي، أضحك عليها كلما تذكرتها.

الأمر مختلف الآن، وفيما يتعلق بي بالذات، علي الإنصات إليه لأنه الصوت والصدى.

اكتفيت باللجوء إلى نظرة من عيني "أحمد" وهو بدوره استجاب لنظرتي:

- ستصورنا الصحف يا صاحبي "عنقود" وسترى نفسك في التلفاز والمجلات.. هل توقعتَ معجبات بفنك وقلمك؟

- إطلاقا "يا أحمد".. كل انفعالاتي جمعتها للقراءة، أو لتقرأ أنت بعضا من الإهداء ونصمت بعدها منصتَين إلى التصفيق.

- أتدري.. أظنهم سيصفقون لإعاقتي وليس لفني أو أدبي.. لا أريد لأعمالي شفقة ناقد أو مصور أو صحفي.. أريد لها ترك بصمة فنية ولو متواضعة.

وأريد لأبي أن يقرأ عني في الصحف ويرى صورتي.. قد يضع على الجريدة وجبة غداء دسمة، أو على صورتي البقايا لا يهم.. المهم يراني.

فكرتُ لو تأخذني معك ونجوب الشوارع والأزقة، تدفعني بيديك مرة وبركبتيك.. تضجر من ثقل جسدي والكرسي.

قد ندخر بعض الأمكنة نسترجعها في ساعات لنا فقط.. قد نتخيل وندور، ندور في طيش تفاهتنا.. وقد ننطق صمتا ونستدعي العالم من حولنا إلى رؤية بلاغة الدوران... سيعرفون أين يستقر عمق الأشياء.

كتبت أفكارا كثيرة ومحوتها، أخجل من إعادتها. فأنا ابن السابعة عشرة وجسدي له الحق في اكتشاف نفسه.

.. انتشرتُ في غرفة الأوهام ولـمَّتني دواليبها، عصرت أضلعي، وحشدت فيها الكلام البليغ.

أحيانا أعيد ترميم توافهي لأعرف خطأي، ولا أقسو على من أحبوني بإنسانية مفرطة.

- هل تتذكر جريك نحوي مسرعا؟

سرتَ عابرا الشارع المؤدي إلى الحديقة حين طلبت منك الاختلاء بنفسي بعض الوقت.

-أجل يا "عنقود" أنا لا أنسى دموعك الغزيرة والرجل ينثر نقودا في حضنك متخيلا أنك متسول.

يومها صفعت وجهي لغبائي، كيف أتركك وحدك في مكان عام.. وإن كانت هذه رغبتك ولبعض ثوان.. ثم لماذا رغبت بذلك؟

- لا أدري يا صاحبي.. فعلا لا أدري.. رأيت نفسي مطرقا إلى الأرض.. أمسك بذراعي الواهن ذراعي الأكثر ضعفا وهو يرتجف.

رغبات طائشة كثيرة تعتري الصبية في أعمارنا.. ألم تخلع نعلك وتمشي حافيا على الرصيف؟

الاستحمام في نافورة الحديقة.. ارتداء سترتك وساعة يدك بالمقلوب مثلا.

- لا يعنينا الطيش الآن.. اسمع " عنقود" وأصغ للجمهور.. قبل قليل كنت تطلب مني القراءة والوقوف مرفوع الرأس، والإمساك بالقلم جيدا في توقيع روايتك وإهدائها إلى المؤسسة التي استضافتنا وتكلفت بالحفل... والآن أنت من يدفعني في خيالاته خارج القاعة.

فكلما فكرت في طريقة نطق العبارة الأولى صحيحة أبعدتني.

دعني أقرأ كلمة الترحيب أولا، فهذا أمر عسير جدا. والمعرض سيبقى ثلاثة أيام، وسندخل القاعة كل يوم متصفحين الرواية حتى نأتي على آخرها اتفقنا؟

- أجل، اتفقنا.

- هيا ابدأ.

- منَ؟

- أنت يا عنقود.

حمدتُ ربي كثيرا لاقتراب "سحر"مني واستدراكها الموقف الحرج الذي وضعني به صاحبي "أحمد.

دنت مني ونظرة غريبة في عينيها، نظرة لوم وعتاب، لم يكن بوسعي التطلع فيهما، بل ضغطت على يدها أنْ واصلي الكلام، فأنا في أمس الحاجة إليك الآن.

تسمَّرت نظراتها صوبي كأنها تقول أنت قادر على ذلك، إنما إشارة من الدكتور" محمود" إليها حررت خجلي من قيده، ومن هيبة الموقف، فواصلت شكر الجميع، وكل من شجعني لأقف وقفتي هذه.

شعرها الجميل وقوامها الرشيق شد الجمهور إليها.. لا يخرب جمالها إلا بؤس يوحي لعمر أكبر يستبيح ملامحها الفتية.

استعذب مقدم الحفل حديثها وصوتها ثم صفق بحرارة.. تبعه

الحضور مضاءً بالتصفيق.. أشارت إليهم بإيقافه:

- لست أنا من يستحق إعجابكم، إنما الفنان والكاتب هو "أحمد" الجدير بكم وبتكريمكم.

ضجت القاعة ثانية بالتصفيق والتشجيع، وكلمات الإعجاب والثناء على لوحاتي.. اقتربت مني أسرتي في الدار.. (سلوى ومحمود، وسالم وحمامة، أم سالم.. والدكتور سليم).. احتضان ودموع لفرحة الأعماق، وقف "أحمد" حائرا لا يدري ماذا يفعل.أو كيف يكون عنصرا فعالا في لحظتنا.

لم أعطه دورا عن لحظته هذه في الرواية سوى الوقوف صامتا.

أشرتُ إليه بمواصلة القراءة لاحقا وحركتُ الكرسي بهستريا غريبة أثارت انتباه الجميع.

الرحلة الرابعة

سأضع ريشتي مجرىً النهر، وقلمي ضفته

العلاقة بيننا صارت مطرا وأرضا.. رجوت مطرها يسقي أرضي ويكمل بوحه لأعرف الحكاية كلها، سرقتُ نضرة من عينيها الواسعتين، سرقة قطرة من نهر، فالأشياء المكسورة لا تكتفي باستذكار هيئتها السابقة، بل بأصابع تعيد ترميمها.

النسيان مُر والاستذكار أمرّ منه، ولأنني سأعود بها إلى هناك، إلى بداية العطب، مررت يدي على يدها الضفة، هي ضفتي فعلا يلجأ قلبي إليها ويستجير:

- أعرفك تكرهين عفن، التفاح بدءاً من تفاحة آدم وتكاثر تفاح سلالتك كأنثى، واضعا أصبعي على شفتي، بكلام مبهم وإشارة عاقر استعطفتها مزيدا من حلو الكلام.

ذلك بدافع الفضول لمعرفتها أكثر.. لم أفكر بوضوح، أو إشارتي لم تفصح عما أريده بالضبط، لأنها سكنت فترة طويلة تحدق بالفراغ.

تملكتني قوة نداء إنسان عاجز، وتابعتُ النظر إلى ملابسها البسيطة، وشعرها المعقود من الخلف بربطة حمراء... كانت عيناها تبرقان بصمت، وتفرك يديها بطريقة من أضاع شيئا ثمينا.

جلست قربي تلك البتول، ملاك تضوع جراحه عطرا وصمتا. كيف يكسر طوق صمتها عاجزا عن الكلام، وكيف أطلق رحلتها لأعرف.

نبِهٌ صلصالها.. هو مثلها قرنفلات وضوء، يعرف شوقي إلى المزيد فاستدرك:

- أعرف مستكشفا لحوحا أسمه "عنقود.. وما يريده لا يبهج شابا مثله.

- هززتُ رأسي إلى كل الجهات رافضا قولها مؤكدا على التواصل.

حسنا قالت.. لكنني سأتوقف في محطاتي.

*

التصق وجهي بنافذة الحافلة.. هو يطل علي وأنا ابحث عن وجه يشبهني.. لمحت وجها مطليا بمساحيق الغابات ممتلئا بصمغها.

عيناي تبحثان بين ارتعاش البيوت والشجر في مرورنا السريع.. عن شيء أجهله، تخطف الريح خضرة الأشجار وبريقها ثم تحيلها إلى صوت جرس. كل شيء بدا لي مثل جرس يرن.. استمرت الأجراس تضرب عبر روحي حتى شعرتها تتخلل دمي وترن بين عظامي.

جدار يرافق الحافلة ليعترض وصولها إلى نقطة البدء.. كلهم اصطفوا، ليكونوا الجدار.. زوجة أبي وزوجها القبيح وإخوتي.. فاترينات الملابس التي لم استطع دخول أبوابها.. أصحاب المطاعم الفاخرة والشوارع.

لم أعد أعرف هل الحياة تدور حولي أم أنا التي تدور.. قدماي ملتصقتان، أضلعي مضطربة، وصوت الليل الهائل مضطرب مثلي.

سكنت وحدتي رغم ضجيج عجلات الحافلة، والأمل توارى خلفها، بالكاد أهمس لساعة يدي، أترقب فيها موعد الوصول إلى القرية.. إنما الدقائق عسيرة ترتعش هي الأخرى خوفا من غربة جديدة.

عيناي أعمق من كل المسافات، وأقرب من قِبلة تبتعد عن قاصدها.

المسافة من مدينة عمياء تجاهلتني إلى قرية مجهولة خمس ساعات في الحافلة.. أسميتها المدينة العمياء حينما واصلتُ الكتابة عن أنثى تحمل جسدي.. أية مدينة لا تأوي شابة مثلي هي زانية عمياء.

"قرية أبو فرَج" كما أسمتها لي المسؤولة هي مأوى كريم النفس.. لأنني انتظرت فرجها، و افترضتُ اللقاء الأول سيكون حميما يُنبت قدمي في أرضه.

عزمتُ على السفر ليلا لتفادي عيون الركاب وتساؤلاتهم.. كما رغبت مرافقة سكونه واستنطاقه.. لأستعذب الرفقة.

لاحت ملامح "قرية أبو فرج".. في الساعة السابعة صباحا، استأجرت سيارة إلى العنوان المكتوب على ورقة في حافظة نقودي.. مررنا بالشمس المشرقة على البيوت والحدائق.. بقشعريرة أوراق الشجر المودع للندى مستقبلا أشعة الشمس. تلطَّف سائق السيارة وأوصلني عند باب الدار.

أخبرت مسؤولة الموظفين الحارس عن موعد وصولي مسبقا واختصرت علي الترقب والانتظار.

أدخلني إلى صالة الضيوف وأحضر لي شايا وقدح ماء.

اللحظات الجميلة لها عمر مديد وإن كان بضع دقائق، هي مثل شهب تغوص في عمق الأشياء الساكنة لتهبها حركة رشيقة..

تماما مثل ابتسامة السيدة "عواطف" واستقبالها الذي أوسع فرجة الأمل في وجهي.. وازدادت الفرجة اتساعا.. أمرت السيدة "مريم" إعداد وجبة إفطارا لي وقدح شاي ساخن.

شكرتها على سلوكها الراقي وفي صدري تحتدم الأسئلة، لا أجرأ على البوح، سؤال وقح غلب تصبري، خرج دون استئذان مني وأفصح عن نفسه مستفسرا عن إمكانية اشتغالي هنا.

يبدو أن ارتباكي أثار السيدة "عواطف" فتعجلت في إخباري عن قبول اشتغالي في الدار:

- أعرف ما يدور في خاطرك.. نعم تم تعيينك موظفة في دار الرعاية فأهلا بك بيننا.. أنت هنا محاطة بالود فلا تخافي شيئا مطلقا.. نحن أسرة واحدة.

سلبني الفرح من تعبي وقطع عليه درب احتلال جسدي. ما أعظمه من سالب، وما أسعدني بالسلب.

طلبتْ من الأخت "سلوى" أن تمررني على أقسام الدار وتريني الغرفة المخصصة لنومي.

كنت منهكة جدا، و الدخول إلى الحمام حان وقته، لذا استأذنت من "سلوى" الذهاب إلى غرفتي للاغتسال ثم نواصل جولتنا.

غرفة صغيرة بحمام داخلي، ذات سرير خشبي وخزانة خشبية، طاولة صغيرة وكرسي واحد. ملاءة زرقاء وغطاء أبيض.. مرآة طويلة بعرض أربعين سنتمتر معلقة على الحائط مقابل السرير تماما.

هذا كل ما أملك الآن أيتها المدينة العمياء.. باب صغير بثقب ومفتاح متواضع.. المفاتيح لها هيبتها هنا والأبواب تصافحها بود.

طلبت من الأخت "سلوى" الجلوس ريثما أتم قضاء حاجتي

وأغسل وجهي.

كان الوقت يستريح على ممرات الغرف والصالة والصفوف، "وسلوى" التي تكبرني قليلا تستمع لصوت رذاذ الماء من دش الحمام.. تركته يتناثر على وجهي كي أستفيق..

صديقتي الجديدة تبدو متواضعة وطيبة القلب، ذات سحنة بيضاء تميل إلى الصفرة، بشعر أسود طويل يتدلى على ظهرها، ربطته بمشبك أبيض ذو وردة بيضاء... كان هذا شعوري نحوها في والوهلة الأولى.

جسدي بدأ يستعيد قوته، رغم رائحة الوهن، وقلبي استراحت نبضاته الوجلة حتى صرت أتأمل "سلوى" ومن في الدار بشفافية مفرطة، اقتربت من "سلوى" اقترب تيهنا ووجعنا.. عرفت سبب إقامتها الدائمة في الدار يعود إلى قدومها من ملجأ الأيتام.. غريب هذا الأمر. يتشابه المقهورون رغم اختلاف أشكالهم.

سرنا في الممر الطويل المؤدي إلى عنابر متعددة.. كل عنبر فيه عشرة أسرة حديدية بواق إضافي يمنع الأطفال من السقوط.. وقرب كل سرير كرسي خشبي مغلف بقماش مبطن بالقطن لحماية جسم المريض من التعب.. وفي كل عنبر مرافق صحية.

مرضى العنابر يختلفون حسب نوعية الإعاقة وحدتها وحاجة أصحابها لرعاية عادية أو مكثفة.هكذا شرحت لي "سلوى" ساعتها.

كل شيء غريب علي.. المبنى الأبيض ذو الطابقين، يتوسط حديقة كبيرة بسياج عال، الصالات الواسعة، صفوف لمن يستطيع استيعاب ما تقدمه له المعلمة من إيضاحات لتنمية قدرته العقلية.. وكذلك مطعم بطاولة دائرية وغرفة للممرضات.. وغرفة المديرة صاحبة الدار.

هذه الأشياء يا "أحمد" لم استطع الاقتراب منها في اليوم

الأول.. حتى الرسومات الإيضاحية على الجدران بإشارات معينة لعدد أيام الأسبوع والأرقام.

الألعاب في فناء الدار، الغرفة الخاصة بالعلاج الطبيعي، المطبخ المزود بكل المستلزمات لإعداد الوجبات.. كل ذلك استهدف أفضل حالات الهدوء عندي، وجعلني بين القلق والطمأنينة في صراخ ساكن.

قبل محاولتي لسؤال"سلوى" عنكَ يا "أحمد" بادرت هي بالسؤال:

- ويحي إلى الآن لم أسأل عن اسمك، ما اسمك صديقتي؟

أجبتها فرحة باتخاذي صديقة لها.

- اسمي سحر.. سحر أحمد.

أجابتني فرحة:

- يا لسروري، وغرفتي مقابل غرفتك، هذا يعني سأنال جزءاً من السهر اللذيذ معك في حال غفوة مريضتي، فأنا أرعى طفلة منغولية وأطفال آخرين بالإعاقة ذاتها.

تردد السؤال في فمي، فأجلته لموعد لقائي بالسيدة "عواطف" يوم غد. اعتبرتْ هذا اليوم للتعارف فقط، ويوم غد أبدأ عملي، بعد تعريفي بالتفاصيل الدقيقة الخاصة عنك وطريقة التعامل معك.

في الليل جلست قرب "مامة " كما عرفتني بنفسها في حينها صديقتي "سلوى" أوضحت لي أن اسمها حمامة.

تابعتُ "سلوى" كيف تقترب منها وتعاملها بحنو.. تبتسم في وجهها وتمسح ريال فمها، ثم تداعب شعرها بلطف.. لكن حمامة تمعن النظر في وجهي باستغراب، لأني جديدة عليها وتصرفت معي بتوجس وخوف.. عرفت ذلك من زاوية عينيها المبطنتين وبالأخص عينها المائلة إلى الحول.

نفخت منخارها الأفطس وتفوهت بكلمة "مامة" مرة أخرى من شفتيها المتهدلتين، مشددة على حرف الميم بحدة حتى سال لعابها على ياقة ثوبها.. ثم مدت أصبعها باتجاه عيني بقوة وأرجعته إلى فمها تمصه ليزداد رذاذ الريال بترديد"مامة.. مامة".

مصت شفتها السفلى إلى الداخل، أمالت حلقها وأغمضت عينيها، ثم فتحتهما مشيرة إلى عيني مرة ثانية وعوت.. عووووو.. عووو مامة.

استغربت إصرارها الإشارة إلى عيني فأوضحت "سلوى":

- ترجوك النوم قربها، عودتها على وضع رأسي قرب رأسها حتى تنام في حال شعورها بالوحدة ورغبتها بألفة قلب حنون.

قربتُ وجهي منها وعيني على "سلوى" مستفسرة عن نوعية التخلف عند "حمامة".

احتضنا "حمامة" معا حتى غفت في الشخير فاغرة فمها بنصف التصاق في الوسادة ونصف امتد إلى الأمام.

- حمامة تبدو صغيرة الحجم فهل عمرها صغير أيضا؟

- خمس عشرة سنة، لكنها تبدو أصغر وأقصر من طفلة سوية بسنها.

- هل لها أسرة تزورها؟

ضحكت "سلوى" بألم:

- لا.. هي ثالثنا، ثالثة التائهات.

ودعتها ورميت نفسي على الفراش مثل سيجارة متمرغة بدخانها، عصفت أعماقي وأخمدها التعب والنعاس.

رميتُ ملاءة السرير على جسدي وملأني النوم حتى وصل حافة السرير والنافذة، بينما الحديقة بالكاد تستوعب شدة الظلام.

أفقت بعد اختباء الليل في أضلعي وتماديه كي يملأ نفسي ضجرا، رغم تماديه داعبني دفء الشمس المشرقة على المبنى، فسرتْ حرارة يافعة كفتاة بكر في جسدي. اغتاظ الأفق من بريق تلك اليافعة، فتغطى بسحب بيضاء منقوشة برذاذ خفيف.

تلاشى الدفء قليلا وأغمضت الشمس عينيها تاركة لي نهوضا متعثرا

بين الإغفاءة والصحو.. نهضت بثقة من يبغي التعرف على ما سعى إليه جاهدا، واغتسلتُ مرورا بعطري وملابسي المتواضعة المركونة في حقيبتها والدولاب ينتظر استقرارها.

في مشي متهاد قرأت على الحائط تعليمات الدار ومنها جدول الدوام بوجباته الثلاث، ووقت العشاء المبكر "الساعة السابعة مساء".

تلاشى الظل المرافق لي قليلا، وأبرقت عيني بضياء خجول.. تناولت الفطور عَجِلة وأسرعت خطوي إلى غرفة المديرة تلبية لطلبها مقابلتي في ساعة محددة صباحا.

شدني حديثها كثيرا بالأخص حولك:

- أعطِ أحمد اهتمامك وعطفك، فهو معاق بدنيا وليس عقليا، وأشياء أخرى لا أحب ذكرها..

أشحتُ بوجهي عن "سحر" رافضا عدم الصدق معي واستكمال ما قالته المديرة عني.. شاهدتْ ذلك وأصرت على صمتها، خرج مني صوت قبيح،

استمرت على أثره مواصلة الحديث:

- أخبرتني المديرة أنك فاقد لبعض حواسك خاصة في قضاء حاجتك، ولابد من الانتباه للحفاظ الواقي. واسمك عنقود.

- هل رضيت الآن عني؟ لم أشأ إحراجك في كلامها عنك؟

استغربتُ وتخيلتك مثل عنقود عنب يتدلى من دالية عالية.

قلتُ في سري:

- كيف تصل الإعاقة للعناقيد ولها المذاق الحلو والمسكر.. لم أشأ رؤية العناقيد هكذا.. جسد ممدد في فراش.

تجرأت بطرح سؤالي على المديرة أتبين سبب التسمية.. فانسكب كلامها كبحر في قدح استغرابي، إذ الصفة جعلت من اسمك "أحمد عنقودا "وكنية جديدة.. تناسى الجميع اسمك كما قالت، وبقيت صفة جسدك الملتوي على بعضه.. ساقاك دون أقدام، ويداك نحيلتان صحيحتا الأصابع كأنهما فعلا حبات تنضدت على عمودك الفقري ذي الجسد الذاوي.

كما عرفت ذلك من الوهلة الأولى لدخولي العنبر عن تسعة مرضى بينهم فتاة ترتدي نظارة طبية، بوجه سمين أبيض، وأكتاف منخفضة كثيرا على جسد مربوط بإحكام بسير جلدي يلتف على أكتافها، ووسادة تحمي رقبتها من الميلان نحو الصدر المكتظ بأضلاع مرتفعة.. ساعدها الأيمن أقصر من الأيسر بكثير، كأنه كتف على شكل إصبع، الساعد الأيسر ذو كف ملتوية إلى الداخل والقدمان بحالة جيدة، شعرها الأصفر الناعم أثار انتباهي وفرحت بهبة القدر لها، لتجعل من شعرها محط أنظارنا نحن الأصحاء.

أهز رأسي مؤكدا كلامها، فأنا أقدم منها هنا واعرفهم كلهم.. حتى الآخرين المصابين بتشوهات ضمور الأطراف.. وارتخاء العضلات، على أفواههم تحجر زبَد الكلام وصار عويلا، يهبط الكلام على شكل رمال خرساء في صحراء ألسنتهم فتجف في الحلوق.

أوهمتُ نفسي بكلمة نعم وقلت لتلك النفس الشقية:

- عنقود معاق منذ الولادة، لم يستطع رحم أمه أن يهبه قدمين

صحيحتين فبترتهما حرارة الرحم. . ساقان نحيلتان ورأس كبير، عينان صغيرتان مضمومتان من طرفيهما وجحوظ في بياضهما، سن كبيرة تتوسط فمي.

أسمر بصفرة ذو شعر بني أجعد. . . هذا أنا كما أراه في مرايا الدار ومرآة نفسي.

عنق نحيل جدا بالكاد يحمل رأسي، عينان غموضهما غريب، فيهما نظرة نفس تعرت من ملامحها، تحجر فيهما سكون ولَدُ ميتا.

في لقائنا الأول عرفت نفسها إلي:

- أنا "سحر"، جئت لنصبح أصدقاء.

ارتعشتْ رقبتي وأنا أتطلع إلى وجهها، ثم جمعتُ حاجبيّ على جبيني وقربتهما إلى بعضهما. . ضممت كفي إلى كفي باحثا عما يقرأ قلبي في نبض وريدي.

لا أدري هل هذه حركة لا إرادية مني، أم تعلمتها من المربية التي سبقتها وتصرفت بحكم العادة. فقد امتد الارتجاف يسبق يدي للسلام، وبدت اللحظة كلها ترتجف.

دخل النسيم المشبع بالرذاذ من النوافذ المفتوحة. . فتحت عيني على آخرهما وأبرزت الجحوظ معلنا عن رغبة تعتريني لأوضحها. . لم تفهم قصدي في بداية الأمر. . إنما أدركت السبب حين غيرت ملابسي واقتربت يدها من الحفاظ الواقعي. . سعت إلى تغييره ورشت عطرا قريبا من ملابسي كي تفوح منها رائحة زكية. . لمست جبهتي لتطمئن الإنسان فيَّ أن يستقر.

أول ما وقعت عيني في عينيها، بدت كل الأشياء لها بيضاء. . الملاءة. . السرير وأعمدته، الساعة يخرج منها زمن أبيض يعلن تحرره من الأزمنة، يحرض ثوانيه لتمشي عكس الزمن.

أجلستني في كرسي متحرك وربطت جسدي جيدا لئلا يُسقطه الارتعاش، وقادتني إلى غرفة الطعام.

"سلوى"و "حمامة" حضرتا قبلنا، جلست تطعمها برفق وتحكي لها عن الورد ومحبة "سلوى" للورد، إنما حمامة يتسع شدقا فمها ويقتربان معلنان عن بله عقيم.

مضى الوقت بمحاذاة أضلعنا يشدها لتصبح أكثر اتساعا.. خطت "سلوى" على الورق شكل وردة صغيرة كمادة إيضاحية لكلامها الراغب في إدخال المعلومة إلى ذهن "حمامة".

أخذت"حمامة "من يدها وجعلتها تشمني بعد أن فاح عطر "سحر"، على ملابسي، ثم أشارت إلى الوردة بإيضاح علاقة العطر برسم الوردة.

اتجهنا بعد ذلك إلى غرفة الرياضة لتدليك قدمي، مع حركات رياضية بسيطة تمنح عضلاتي الليونة وتقي جسدي حمى الرقاد والفراش.

كم اخبرتني "سحر" بأشياء أراها ضرورية، وأشياء أخرى تقترب مني:

- كلما عدتُ إلى الذاكرة، تبرق صورة أسرتي في رأسي وتحرقني، أغلق نوافذها المحاطة بالعمى، أتجرد من عمى الآخرين خارج الدار، وأفتح قلبي على نافذتك و"حمامة".

تبتهج عندما تقلد مدربة الرياضة على بعض الإشارات وتحرك أطرافها بصورة عشوائية.. تلمظ، ثم تمد لسانها كله إلى الخارج، تعظ شفتها السفلى وتمد الشفتين معا مع كل حركة.

تشجعها "سلوى" من مسافة متر.. رافعة إبهامها كإشارة تشجيعية.. كلما شاهدت حمامة ابتسامة "سلوى" عوت:

يعَّيّ.. يَعُّو.. وامّمّمْ... نعن.. نع.

وفتحت بئرا على شكل فم.

أحمد أو عنقود.. لا يهم.. المهم كيف جئتُ نتيجة ليلة حمراء مع راقصة رمت إلى أبي هذا الكائن دون اهتمام أو رأفة.. أرسلته مع سائقها وهو في يومه الرابع.. فأصبح عائقا لأب حريص على تجارته أكثر من حرصه على ابنه.. مما جعله يلجأ إلى الدار لتحميه من شر الرعاية الخاصة واعتذار الخدم في منزله الفخم بأعذار واهية، توهم قلة حيلتهم تجاه هذا الكائن الضعيف... بالنسبة إليهما أنا مجرد كائن غير مرغوب فيه.

سرنا جميعا "سحر وسلوى وحمامة" وأنا في فناء الدار للترويح وشم النسيم العذب، وهن يرحبن بأخريات مثلهن، ويبتسمن للمرضى.

بين الحلم وعدمه يهفهف هواء نقي يعبر السماء كلها ويتشرب بأوردتنا المشجرة بإنسانية مفقودة في زمن أعرج.

بفطنتها "سحر" تابعت بريق عيني لحضور "حمامة" جلستا على مسطبة وتركتا لنفسيهما عنان الحديث، "ولحمامة "ولي ترقب الثواني الجميلة، وسرقتها من ساعة زمن لا يضبط إيقاع التوقيت.

ونحن في غمرة نشوتنا أسرعت "سلوى" نحو وردة وقطفتها، ثم قدمتها "لحمامة" لتدرك أن العطر الذي شمته صباحا يُستخرج منها.

أن يبتسم الصبر شيء جميل، والأجمل استعراض ابتسامته على مسرح حياة المعاقين ليصبحوا هم أبطال ملهاة الصبر.

ليكن الاستعراض تراجيديا، المهم يحرك على أكتاف الشجر عصافير يصغي إلى أصواتها مرضى عزلتهم الفرصة الصحيحة، وتركت قواربهم ترسو على ضفاف الشفقة والرحمة.

غادر الأبوان "سلوى".. وتركاها لخال وضعها في ملجأ للأيتام تلبية لرغبة زوجته.

لم تشأ "سحر" إيلامها بتفاصيل حياتها البائسة، لكنها ازدادت يقينا بعطائها وتبنيها مبدأ الإيثار وبتفرد قلبها بحب "حمامة".

ذات مكاشفة، شرعت "سلوى" تحكي لها حكاية السيدة فضيلة.. كيف كانت من أسرة فقيرة معدمة مكونة من أربعة إخوة توائم وهي.

مرايا أخرى لزمن أطرش.. رأت أسرتها في تلك المرايا زادا لفقرهم وعوزهم، فزوجوها لثري في المدينة يكبرها بثلاثين عاما.

خريف وربيع يتصارعان مع القدر... نتيجة لصراع مر، بدت الهدايا والملابس الفاخرة أفاع تنهش جسدا وروحا من ضحايا الفقر.

الثامنة عشرة سنة الزهو وليست سنة الترمِّل.. لم يسمح لها عرف الأرملة الحلم بجواد أبيض وفارس يمحو زلل زواج غير متكافئ.. مثلما لم يسمح لها زوجها بزيارة أسرتها.. إنما تفضل عليها الموت بحريتها المغتصبة.

عادت إلى القرية بثروة لا بأس بها، ووفاء لإخوتها المعاقين الذين ماتوا نتيجة الفقر في قرية ليس فيها أي اهتمام من وزارة الصحة، أو أية جهة حكومية، نذرت نفسها ومالها لهذه الدار.

الزوج المسن لم يهبها جنينا، لذا عادت لأبويها تحمل بين أضلعها حلما مفقودا.

السماء لم تخف أطيارها.. وعلى همس أوراق الشجر راحت ترفرف عاليا وتجبر خواطرنا.. تناثرت الأوراق الصفر إثر ريح

خفيفة، لجأت حمامة إلى حضن "سلوى" . . مسحت الريال من فم حمامة وسرنا نذرع الحديقة منصتين لصوت الورد.

نطت "حمامة" مثل فأر هارب من قط، وأسرعت إلى الداخل تبحث عن طعام في المطبخ . . . . . الطيور هنا لا تعرف غير التحليق في فضاء نقي لا تشوبه أية شائبة حقد، أو غيرة. . القرية حضن لنا جميعا . . نحن المقتنعين أن الوطن هو الأرض التي لم تلده أم.

سواعد لم تتلطخ بالدماء والصراعات من أجل بقاء الأقوى . . هنا نصارع من أجل أن نكون سماء وأطيارا.

الرحلة الخامسة

هناك زهور تتفتح في الليل،
كي تكون لمسة عطر للنهار

أستطيع أن أعقد الدموع بالدموع وأضفرها حبلا ألفه على رقبة المتبرئين من أبنائهم، أستجمع ما أريده من نسيان وأبني لي مدينة من ياسمين، شجرة تعشش فيها قلوب الطيبين.

مدن من أغاني، نحلق في سمائها نتقمص النجم ونطلق فراشات أحلامنا لهدير له لون وجوهنا.

سيكون لون النهار مختلفا، ليس لنا لحظة صفراء أو رمادية.. حيث ما نكون تكون السماء.

لا يستطيع "أحمد" الابتعاد عني، بيد أنه لا يكون متوازنا إلا قربي، العذاب الذي سرى بي آلفه وأصبح جزءا منه.. إني في حاجة إليه الآن، في هذه الساعة بالذات ازدادت وحدتي دونه... مال رأسي ناحيته فأسرع يمسك بالكرسي ويضغط على كفي. فضحتني دمعة سالت على خدي واحتضنت رقبتي.. يعرف من رجفة جسدي هناك ما أريد التصريح به.

التصق فمه في أذني:- هل تفكر بي الآن؟

- نعم.. أفكر فيك الآن وسابقا، ، إثناء رحلتنا معا.. كان خوفي عليك شديدا من معرفة هذه التفاصيل والتي ستليها..

يجب ألَّا يكون حديثنا هنا عابرا.. فقد عشتَ معي لحظتي الحرجة.

في أحد الأيام قضيتُ ليتي لم يسعفني القلم أو الفرشاة اللينة.. وبالتعاطف معي ظهرت صورتك أمامي على الورق.

كنتُ محتارا كيف أوضح الملامح والتفاصيل.. ولم تأت حيرتي من فراغ.. بل بسبب عدم قدرة أصابعي على تحريك نفسها بالشكل الصحيح.

من الغريب أن صفاتك كانت سهلة علي لأنها تشبهني لكن بطريقة أخرى.

وجه صبوح، جسد ممشوق.. شعر أسود مسترسل على الكتفين.. عينان كبيرتان.. أسنان منضدة كأنها حبات من الؤلؤ.. أصابع رشيقة تمسك بالقلم بطريقة أكثر رشاقة.. كل شيء فيك شدني لأقترب منك.

في صباح اليوم الثاني سألتني الآنسة "سحر":

- ماذا لديك ولماذا تخبئه تحت الوسادة؟

لم أجبها والتزمتُ الصمت.. احترمتْ خصوصيتي ولم تعد السؤال.

تركتُ بعض ملامحك غير كاملة ريثما أعود إليها في الليلة القادمة.

أرسمك لأجل الأماكن التي لم أعرفها.. الأمهات اللواتي يرف الحليب في أثدائهن كما طائر رشيق، ولأجل الثلج المتقمص ضمير أبي.

في الاقتراب منك لم يكن الأمر هروبا من شيء، إنما

الاكتشاف.. بدافعه صرت اعد الساعات لحلول الليل.. وأخلو معك ومع تفاصيلك.. أخبئك عمن يباغتني دخوله فجأة ويفصلك عني.

كل شيء في الغرفة يضم جسدي المتعب غريب علي إلا أنت.. كل النظرات أحسها تراقبني ما عدا نظرتك تتوحد بأجفاني.

الفلاح في الحديقة، الآنسة "سلوى والآنسة سحر" الممرضة المناوبة ليلا.. دكتور "سليم" الذي يزور الدار كل أسبوع.. كلهم يمارسون العطف في زيارتهم لي، حتى سائق الدار الطويل القامة، ينفث سجائره وهو يدفع بالكرسي إلى السيارة ويقلني إلى المستشفى القريب من الدار حين أصاب بإسهال، يدفعني بلطف ويُسمعني كلماته المعهودة:

- ليحرسك الله يا ولدي.

لا أريده ولا أحب هذه التلاوة منه، فهي تذكرني بعجزي.. لكن أنت مختلف.. لا أتسول منك الرحمة، بل تجرني بسرعة إلى الشارع العام.. تصارعني، نركض وراء دجاج الجيران ونسرق ما يقع في متناول أيدينا من بيض... نتشارك في الضغائن والحب، الذكريات والتساؤلات.. كل شيء فينا له شقاوة جميلة..

نخرج مثل فراخ فارة من قط..، نراقب شكلينا في المرآة.. أينا أطول من الآخر، وأينا أقوى ساعدا..

الغلبة إليك دائما لأنك الأكثر قوة والأجمل.

لا تستغرب من كلامي يا "أحمد".. هناك صفحات في الرواية ستوضح إليك أكثر، وستعرف جيدا إن تلك المرحلة من حياتي كانت ناقصة بدونك.

لو لم أكتشفك لما وصلت إلى ما وصلت إليه الآن.. أحاول نسيان حماقة كل الأشياء حولي وأتوجه إليك.. لم أسألك يوما

لماذا لا تأتي إلا حين أستدعيك، ولم أرهقك بكل أفكاري السوداوية.

ها أنت ترتدي نفس ملابسي.. اخترتَ اللون ذاته المفضل إلي" الأزرق"كما لم تضع ربطة العنق مثلي لأنني لا أملك عنقا يتحمل التصاق الرباط، بينما مجاملتك لوضعي جعلتك تتصرف مثلي وترميها جانبا.

أعرف أنك تشاركني كل معاني الطفولة الجميلة.. طيشها..، رعونتها، تهورها، الفرح، الخوف.. كل ما فيَّ هو إليك أنت، وكل ما إليك هو إلي.

اليوم نقف معا في القاعة، أشبه ما نكون إلى شمس وظل.

حين تصل إلى الرحلة الخامسة في الرواية لا تتفاجأ من عشقي "لحمامة"

فهي رغم تخلفها أحسها لي وليس لغيري.. هي وحدها الصورة المناسبة الأولى التي رسمتها عندما تعلمت الرسم ونمت موهبتي في الفن قبل الكتابة.

الكتابة جاءت من حرص آخر لي لاكتشاف نفسي.. وللتحدي.

أستعير هنا بعض كلام "سحر" كي أدخلك عالمها ونستمر في الكتابة عنها.

*

كلما التقيتُ "بسلوى وحمامة وعنقود" شعرت كأنني تركت ورائي نفقا ضيقا وممرات صدئة.. منحتني الدار هدايا جميلة أبهجت أيامي بابتسامة فريقنا المنسجم روحيا.

"عنقود" شمعة تدعوني إليها..، أسمع ومضها القادم من اهتزاز أضلاعه الصغيرة.

أشجع نفسي على توأمها المرافق لظلي، أطرد الوجوه السابقة وأستحم بنور رفقتي الجديدة.. ربما تعلقي "بأحمد "نتيجة حاجتي لقلب رفيق لأضلعي، وحين افتقدته صرت هذا القلب لأحمد.

الشروق يهب نفسه ليستنير الآخرون، فلماذا لا أزرع طفولتي مرة أخرى.

لم تجد في برنامج الدار ما يطور قدراتنا، مما جعلها تأخذ قرارا بعدم التقيد بقوانينه.. والاشتغال على تغيره ليسهموا جميعا لخدمتنا.

استفادت من دراستها، خاصة عن دور الموسيقى وتأثيرها على نفسية المتخلف والمعاق.. واتضحت لها فكرة التنفيذ.. طلبت الاستعانة بأستاذها في المعهد قبل أن تتخذ أي قرار كي تكون على قدر المسؤولية في تقديم العون.. حين تخرجت طلب منها اللجوء إليه في أي وقت، إذ كانت ترى فيه الأب والصديق.. وهو بدوره لم يبخل عليها في أية التفاتة.

كنت أعاني من قلق النوم، تتأزم حالتي عدة مرات في الأسبوع مما يضطرها المبيت معي حتى الصباح.. تحكي لي حكايات، وتقرأ أشعارا أستطيع فهمها.. لكن وقت اشتداد الأزمة لا فائدة من القراءة..

خطر لها تنفيذ ما عزمت عليه.. لعلها تضيف لي بهجة أرجوها، وتخرجني من صمتي.

أدارت الراديو الصغير على محطة لتقديم الموسيقى الهادئة، وضعت الراديو قربي دون علم مني، وراحت تقرأ ما أصغي إليه وأحبه.. رأتني ابتهجتُ على حين غره وانبسطتْ ملامح وجهي.. أمسكتُ بيدها بإصبعين واستمعت منصتا حتى غفوت هادئا مليئا بالعواطف.. ومثلي حمامة، ومن فرط هدوئها علا الشخير في العنبر.

شاركنا نزلاء العنبر في هدوئهم، ما عدا "محمد" الذي لا يعي أي شيء حوله... جسد وحركات لا إرادية، ومأمأة قطط، وصياح تزفره رئته إلى الحنجرة.

في صباح اليوم الثاني اقترحتْ على المديرة إدخال الموسيقى في العنابر، أو تضيفها كمادة أساسية في البرنامج اليومي مع الرياضة والمشي في الحديقة والتعليم بالإشارة وغيرها.. كما أنها على علم بأهمية الرسم أيضا.

أكدت على السيدة "فضيلة" :

- الطريقة غير اللفظية ذات فائدة كبيرة مع الأطفال المتخلفين وفرصة للتعرف على قدراتهم، كما تعطيهم فرصة اكتشاف ما يدور في دواخلهم.. وتشعرهم بالأمان... هكذا تعلمت سيدتي إثناء الدراسة.

ثم واصلت:

- الموسيقى تدغدغ المشاعر سيدتي.. لندعها تنقلنا إلى عوالم الحلم فنحن في قحط الأحلام.

قالت هذا بعد اتصال هاتفي بالأستاذ "جميل".. أبوها الروحي الذي أيد فكرتها موضحا بعض الأساليب وطرق معالجتها إن حصل أي خلل في التطبيق.. راجيا العودة إليه في أي حين.

أيدتها المديرة وكلفتها شخصيا بهذه المهمة على أن تكون للجميع.

أطلقت أغنيتها الجديدة برضا جعلها مثل طفلة تمسك يد أم حنون.. أغنية الفرحة ستنشلنا من العزلة وتضع أمامنا أكاليل مرح ينعش صدورنا الهزيلة.

كانت تقول "لسلوى " دائما:

- بودي رؤيتهم شعلة ضوء تستخرج الطفل الذي يسكنهم.

اختاروا المكان والصف المريح الذي يدخله الهواء من نوافذ واسعة، وحددوا شكل الطاولة والكراسي المتقاربة لنقضي وقتا أليفا وحميما.

لم يعد الظل يلامس وسادتها، وستائر الضياع كفكفت أذيالها عن نوافذها. حُق لها العيش بأمان، لكن فكرة عارضة طرأت في بالها:

(كيف تجعل من عنقود ضوءا للزهور ومن حمامة أجنحة للفراشات)

"سلوى" تبذل جهدا كبيرا لإنعاش النبتة التي لا تزهر بين أطراف أناملهم.. وتساعدها بجعل الجهد مكثفا.

بعد يومين فاجأتها المديرة بدخولها إلى غرفتها وبيدها أكياس رصت فيها دفاتر الرسم والألوان والأقلام، وطلبت منها التنفيذ فورا، واختيار من تراها كفأ لذلك.

نظموا ساعات العمل في المهمة الجديدة على أن تكون ساعتان لكل عنبر.

كُلفتا بمهمتين وجدتاهما أسعد وأنقى المهمات.

"سلوى وسحر".. جميلتان هاربتان من قحط المدن اللئيمة، أصبح لهما عملان.. رعايتي وحمامة.. ومتابعة حصص الرسم والموسيقى.. إضافة إلى عون بعض مربيات الدار كي يثمر عملهم الجماعي.

لم نفارقهما أنا وحمامة، ولم نقبل بالبديل ساعة انشغالهما مع الآخرين في حصص الرسم والموسيقى.. فاضطرا إلى أخذنا معهما في الحصص الأخرى.

لم نثقب مرايانا لاختراق العقيم فيها، صارت "سحر " مرآتي والمثقب كلما ابتسمت في وجهي راغبة بانقراض القلوب الخبيثة،

والوقوف ضد كل ما هو وهم.. رغبت بالشك تدخل اليقين قائلة:

- حتما هم أموات ونحن الأحياء، وهؤلاء المساكين جذور الحياة الضاربة في أرض الطهر.

بماذا تُقاس الأعمار؟ هل بالعروق والعظام والأسنان؟ هل بعدد السنين؟

بالأرصدة والمباهج؟ أم بهؤلاء فاقدي القدرة على نطق أسمائهم؟

ما أطيب الجميع هنا.. إذ بمقدوري الاستمتاع بعطائي وأتلمس بحركات رقابهم المهزوزة نبتة مزهرة.

على هذا النحو قضينا معظم أيامنا، نحاول اكتشاف المخفي لنظهره ونضعه بين أيدينا، نتعرف على أنفسنا ولا نشعر بضعف أو كلمة ونظرة شفقة.

لم يعاملوننا بنظرة العطف والترحم، بل بالثقة بالنفس وإعطاء مخزوننا فرصة الظهور والكشف عن نفسه.. سواء في رسم أو سماع موسيقى وأغنية.. أو بفهم إشارات غاية في الأهمية لدينا.

وباستنطاق الرائحة من الورد بالنسبة لـ "حمامة" التي صارت تطلب منها كل يوم أن تضع حول رقبتها العطر كما الحال معي.. تسألها "سحر"

تسألها بعاطفة: - هل تغارين من عنقود؟ ثم تبتسم في وجهها وترشه عليها.

رحنا نتبارى في السبق إلى طلبه منها كل صباح.. أفرحها حالنا، وسرها تسابقنا للعطر، لأنه يدل على نضجنا وتذوقنا الألوان والروائح.

اكتشفتْ موهبتي في الرسم.. أتميز عن الآخرين برسم الوجوه وبدأت بوجه رفاقي ووجه "حمامة".

في البداية كانت الرسوم مشوشة، بالتدريب والحضور اليومي في كل الحصص بدأت تتضح الوجوه والملامح.. وكلما اختليت مع نفسي في العنبر وضعت الورق والقلم تحت وسادتي، أستخرجها على حين غرة لأكمل رسما في ذهني.

لم تشأ التدخل في خصوصياتي لأنني أرفض اطلاع أي أحد على ما أخبئ تحت الوسادة، وأضغط رأسي بقوة على وسادتي إثناء تعديل الفراش، فتتفهم قصدي وتصمت.

ذات يوم وفيما أنا في غرفة العلاج الطبيعي، رغبتْ الدخول إلى عالمي الخاص.. لاحظت وجه حمامة على كل أوراقي.. حمامة وهي تأكل، حمامة إثناء الرسم، حمامة تضحك، حمامة تستمع إلى لموسيقى.. ووردة بيد حمامة.

بدافع الحب أرسمها في كل حالاتها.. وهذا يعني أن نتيجة الفن والتعبير الصامت أفلحت معي.. لكن هل هي تجربة فقط أم أهواها؟

عزمت حمامة على رسم الورد في كل حصة كأنها تكتشف شيئا فيه.. أو تحاول جذب "سلوى" وإرضائها لتجلب العطر لها وترشه عليها كل صباح.

أكثر الاحتمالات أنها وجدت ذاتها في الورد واكتشفت في الرائحة أريجها هي، لذلك تحوم حولها كلما رغبت الاكتشاف.

أفزعنا الصراخ الصادر من "حمامة" في فجر قائظ.. هرعت"سحر" إليها مع "سلوى" تستوضحان الأمر.. تمدد الدمع على جفنيها واستقر فيهما متلذذا برائحة الخوف.. صحا جميع من في العنبر على هياجها.

دائما تخاف الماء وتتذمر من أي بلل يلوث ثوبها فكيف بالدماء عل ثوبها والملاءة.. كان لا بد من تهدئتها والطبطبة على

ظهرها وضم رأسها إلى صدر "سحر أو صدر سلوى". لكن كيف توضح لها أنها بلغت الرشد وهذه دماء الحيض وهي تشعر بالغضب والخوف.

أخذتها "سلوى" إلى الحمام غيرت ثيابها وعلمتها كيف تضع الحفاظ الخاص بالنساء.. غسلت يديها ومكان الدم جيدا وشرعت توضح لها:

- لا تخافي حمامتي الجميلة، سيحدث هذا الأمر كل شهر، شأنك شأن كل نساء الكون.

دمدمت "حمامة" مشيرة بإصبعها إلى "سلوى وإلى سحر"، ثم أرجعت إصبعها إلى صدرها.. فهمت "سلوى" قصدها فأجابتها:

- نعم يا "حمامة" أنا وسحر يحدث لنا ما حدث إليك الآن وكل شهر.. أنت الآن امرأة.. وبعد شهور ستجدين نهديك كبرا.. وسأشتري حمالات لهما حتى تبدين امرأة جميلة.

بقيتا قربها ساعتين تنشدان أجمل الأغاني القريبة من فهمها وتلعبان بشعر رأسها حتى أغمضت جفنيها.

لم ترغب صباح اليوم الثاني في الذهاب إلى حصة الرسم والرياضة.. كانت في عالم آخر وصورة أخرى، تطوق وجهها أشياء لم نرها عليها من قبل.

تجاهلت نظرتي إليها، وأطرقت أرضا لهاتف من عينيها.. إذ ما زالت في هول الصدمة.

أخفت رأسها في صدر "سلوى" وأخذت تبكي بصمت والدموع تفيض على خديها.

سلوى تدرك أنها ما تزال خائفة، أو لم تقتنع بكلامها البارحة.

حجبت نفسها عنا جميعا، وقت شعورها بالجوع خرجت من

عزلتها إلى المطبخ طالبة من "مريم" بعض الأكل.. انقادت لصوت بطنها النهم وولعها في الأكل.

ثمة أشياء صامتة تبحث عنها" حمامة" بين الأشجار والأغصان وهي تطارد فراشة زاهية.. أسعدتني سعادتها وعودتها إلى وضعها، بينما قبل يوم كانت تتابع الضوء من خلال النافذة ولا تخرج إليه.

رجعت ترسم الزهور والفراشات بألوانها البنفسجية والزرقاء، وحين أبتسم لها يصبح عالمها شفافا رقيقا.. فتدور حولي دورات غير منتظمة وتركض خلف "سلوى" لتريها ما خطته أناملها على الورق.

اقترحت عليهما المديرة عمل مسابقة فنية، يدعون الأسر التي بإمكانها مشاركة أبنائها، ومن لم يستطع الحضور سيقومون مكانه حتى لا يشعر المعوق أنه وحيد ودون أسرة.

إن عمل احتفال بين معوقين أمر غاية في الصعوبة، لأنه عليهم الاشتغال بجدية أكثر، وسماع الموسيقى والأغاني، والمقتدر منهم يردد ولو بتعثر.

ارتعشت يد "حمامة" الدافئة وهي تهنئها على رسمها وتخبرها عن مشاركة نتاجها في المعرض المقام في الحفل.

أشارت إلى حاجتها للعطر، وتحسست ثوب "سحر" راغبة بمثله للحفل القادم.

صار رسمي أكثر اتقانا وتعاملي مع اللون مدهشا، لقد وهبني الله موهبة عوضتني عن ضآلة جسدي وقبح أطرافي.

نزلت السكينة على روحي أثناء اختيار رسمي للمعرض، لكنني رغبت المشاركة بصورة أخرى.

كانت "سحر" تعرف تماما أية رسمة أبتغي، لذلك استجابت

لفكرتي وقادت بالكرسي المتحرك إلى العنبر. . ثم وضعت رأسي الكبير بهدوء على الوسادة متحدثة بعزم:

- هيا أعطني صورة حمامة. . عرق جبيني وكورتُ شفتي وعقدت حاجبي، لاحظت امتعاضي من معرفتها سري.

صدر مني صوت رقيق وأغمضت عيني هربا منها.

اكتشفتا مواهب أخرى بين المرضى، فأصبح لدينا فريق فني مكون من رسامين ورسامات وأصوات جميلة. . تحفنا الموسيقى وترقص في أعيننا.

بحضور بعض الأسر وفريق العمل في الدار أقاموا الاحتفال مع المعوقين الموهوبين، والمتفرجين والذين لا يعون شيئا سوى النظر إلى الوجوه.

كثر عتب "سحر" على أبي لعدم اكتراثه بالحضور، وتركه لي أتطلع إلى وجوه الحاضرين لعلني أجده.

فرح الفائزون بجوائزهم كما فرحت المديرة بمنجز جهودنا جميعا وفكرتها الرائعة.

حين انفض الحضور اقتربت إحدى السيدات من مديرة الدار تتوسل إليها عن إمكانية قبول ابنها، فهي قادمة من قرية أخرى لزيارة صديقتها "أم مسعد" التي تجلب ابنها نهارا وتأخذه ليلا إلى دارها لتسهر على راحته ورعايته.

أوضحت أن ابنها اليتيم منغولي، ولم يعنها وضعها المادي على إدخاله دارا خاصة بالرعاية.

هو وحيدها وتتمنى لو اكتسب بعض التعليم. . أكدت أنه قادر على ذلك لأنه يفهمها جيدا ويطيعها لكن بعض الأحيان لا يدري ما تقول.

أجابتها المديرة بابتسامة رضا وطلبت منها إحضار ابنها متى تشاء.

كل شيء يأتي حاملا معه هيأته ودواخله.. يلمس النظرة في عيوننا جميعا ويلتقي فيها كجزء منه... كل ما تبقى "لسالم" أمه وإعاقته.

"سالم" النزيل الجديد في الدار.. المنغولي الذي لم يحظ برعاية خاصة أو تعلم شيئا من أمه غير المتعلمة.. لم ينل منها سوى العطف وملء المعدة.

فرصة الاحتفال وحضور أمه لزيارة صديقتها هي نافذة جديدة لحياة شاب في الثامنة عشرة..

جاء من قريتهم الضيقة إلى رحاب قريتنا ودارنا.. كان منعزلا في دخوله أول الأمر، ولم يرغب بأية مربية ليبقى تحت رعايتها..

بعد ذلك امتلأ رغبة في الاختلاط ومواظبة دروس الرسم والرياضة والموسيقى.

أوكلت المديرة رعايته إلى "سلوى" وارتأت فصل المنغوليين في عنبر وحدهم.

نفذت "سلوى" ما طُلب منها فورا، لكنها رغبت فصل الإناث عن الذكور على اعتبار أن من بينهم إعاقته متوسطة.. كما فيهم من أخذ البلوغ يتضح عليه.

لم تعد الحياة بالنسبة "لسالم" مشكوك فيها في الدار.. بل راح يألف كل تفاصيلها ولو بتفاوت وبطيء.. في أعماقه نضج رجل جديد يطوف على جسده كل يوم ليتعرف على عقله الناقص.. نقيضان لا يستطيعان التعايش بسهولة.

في ساعة الترويح يدور "سالم" في أرجاء الدار متطلعا إلى

الإشارات التوضيحية، محاولا تقلديها بأصابعه للاقتراب من فهمها وهضمها.

انتبهت "سلوى" لطموحه هذا فبذلت جهدا مكثفا في تعليمه.. تأخذه كل يوم لوحده في حصة الصداقة التعليمية كما أسمتها لترى انبساط أساريره أثناء التعليم.

عليها تدريبه على تعلم الأرقام بلغة الإشارة.. فراحت تريه الرقم واحد بإصبعها.. ثم تكرر العملية بزيادة إصبع كلما تعرف على عدد منها.

في البداية كان يقلدها فقط ليكسب رضاها، ولتجلب له مزيدا من الطعام خاصة البسكويت المحشو بالكريمة.

تغض الطرف عن طلب وتستجيب لطلب، ثم تعاقبه إن أساء التصرف مع باقي زملائه في العنبر بقطع البسكويت عنه.

فمه غير متجانس الأسنان، فالفك العلوي بأسنان صغيرة جدا.. وعيناه متقاربتان إلى بعضهما.. أذناه ملتصقة شحمتاهما من الأسفل بجلد الخد، ذو شفة غليظة ولسان طويل يستخدمه كلما أراد شيئا، فيمده إلى الحنك تعبيرا عن رغبة ما في داخله.

وجه عريض وأنف قصير وصغير، بحيث ترك مساحة فارغة كبيرة بينه وبين الفم.. وسمين بعض الشيء... له غرة ناعمة مسترسلة على جبينه.

تزوره أمه نهاية الأسبوع، تأخذه إلى القرية ثم تعود به ثانية.

يفرح لقدوم أمه ويودع رفاقه بالتفاتة وابتسام.. يتفوه بكلمات غريبة وصوت مثل عواء الكلب القادم من بعيد.. يفرك أنفه بقوة ويدور رأسه باتجاهنا جميعا حتى يصلا بوابة الدار الخارجية.

خمسة مرضى ترعاهم "سلوى" و"سحر" ترعاني وتشرف على حصص الفن والموسيقى.

هذا بالإضافة إلى مسؤولية باقي المشرفات وجداولهن في الرعاية بكل أصنافها.. منهن مَنْ يبتن بالتناوب ومنهن مَنْ ينتهي عملهن في السادسة مساء نهاية الدوام.

أغلبهن يقبلن برواتب الدار القليلة لظروفهن العائلية، بينما أخريات يقدمن الدار وفي قلوبهن تزخر روح التطوع، فيقبلن بأي مقابل تلبية لإصرار المديرة.

انتشر خبر الدار في القرية والقرى المجاورة حتى بلغ أقرب مدينة لـ"قرية فرج".. دارنا الراعية والمحتوية لأجسادنا وقلوبنا جميعا.. بعضنا له أهل يتقرب منهم في نهاية الأسبوع.. والآخرون لا أهل لهم كحالي إذ لم يسأل عني ولا حتى قط أو فأر في منزل أبي.

"سحر" الآن بمثابة الأسرة، إذ لا أحد يهب حضنا حقيقيا في الزمن المادي، وإن وهب يكون مخادعا من أجل مصلحة أو رغبة مغرضة.. الدار مأوانا وحصننا من الذئاب البشرية في المدن المعاقة.

لم تكن تعرف أن للمتخلفين أحن القلوب وأرقها.. كما لهم شفافية الدموع، علما لم يعرف أي احد منهم عن مصدرها.. لكنهم يطلقونها بكل حرية ووقتما شاءوا.

رغم خواء أيامها، إلا أنها لا تشك بمتعتها وهي بين أحضان هذه القلوب البريئة، وارتجاف أيديهم ساعة حاجة أو التعبير عن رغبة بشيء. أي شيء يخص الحياة.

كان "سالم" مشدودا إليها، وكلما اقتربت منه، أو شم عطرها ماء مثل قط أخرس... كما لاحظت اهتمامه "بحمامة". هو لا يعرف سر هذا الاهتمام، لكنه يشعر به غريزيا.. يفر أحيانا مثل أرنب مذعور، لاقترابه من "حمامة" يسير وحيدا على مهله، ويتعجل السير مرتبكا غير مدرك سر ارتباكه.

يفرك أصابعه ويضع بعضها في فمه حتى يسيل لعابه.. يلعق إبهامه.. ينظر حوله ثلاث مرات وأربع.. إلا أن قيدا يشده حول نفسه.. فينفخ منخاره ويزم شفتيه، ويعصر عينيه.. يرفع جبهته إلى أقصياها ويهبطها.. يهز رأسه فتتناثر غرته على الجبين وتلمس أطرافها عينيه الدامعتين.

أخرجتني عصرا وأنا في الكرسي المتحرك مائلا برأسي إلى جانبي الأيمن، وضاما كفيَّ إلى بعضهما كمن يضم شيئا ثمينا لا يريد أن يراه أحد.

رافقتنا في السير لحديقة الدار "سلوى" وهي تمسك بيد "حمامة" ويتبعهما "سالم" وعائشة وفاطمة.

(طالب وعبد الله وصالح وحسن) كانوا برعاية مربيتين غيرهما.. أما النزلاء معي فنصيبهم الدفع بكراسي متحركة، لأن أغلبهم لا يقوى على الحركة أو النطق.. اثنان منهم يفهمان الإشارة باستيعاب أحيانا وباستغراب أحايين كثيرة.

أما "سرور" ذو السبع سنوات.. فقد كان على علم بما يجري حوله لكنه لا ينطق.. ورغم شكل الإعاقة الواضحة على ملامحه يبدو سليما بعض الشيء، فمساحة جبينه كبيرة ومرتفعة.. وأنفه صغير جدا.. فمه مفتوح دائما حتى كانت المربية تخشى من دخول الذباب أو البعوض فيه وقتما نتنزه في الحديقة..

استيعاب سرور حيرهم جميعا.. لأنه يبدو فطنا ويتفهم أية إشارة ويستجيب لها.. لكنه حين التعبير عن ذاته أو غضبه يبدو أبلها تماما.. ربما للتعبير عن الرفض لشيء ما أو عدم استسلامه لتعاليم الدار في النوم المبكر.. لكنه يمتهن هذه الصفة للفت انتباهنا.

عيناه مدورتان وحاجباه خفيفان وقريبان جدا من عينيه كأنهما

يشيران إلى استغراب دائم. . . جسده نحيف جدا وقصير مقاسا لطفل في مثل سنه.

تجولنا في الحديقة. . النظر بلا إشارات، إلى كل الأشياء نومئ إلى أنفسنا أو إلى بعضنا. ودون أية إشارة أيضا.

قطفت "حمامة"وردة قدمتها "لسالم" وراحت بإشاراتها المرتبكة توضح له عن الرائحة وتجلبه إلى عنقها زيادة في التوضيح ليشمها "سالم" ويتعلم أن للورد رائحة كما علمتها "سلوى".

قصر "حمامة" إثناء وقوفها قرب "سالم" جعلها تبدو مثل ابنة صغيرة له بسبب ضخامة كتفيه وكرشه ووجهه العريض ورأسه الكبير.

إشاراتهم بلا شفرة، يحدقون إلينا كأنهم يفتحون بنظراتهم رسائل مغلقة،

وأحيانا أراهم نغمات موسيقى مجهولة الهوية تدور حول نفسها لا تعرف اتجاها أو هوية.

النظر إلى الأشياء وتفكيك لغزها من صفاتي أنا، بل سلواي الوحيدة الحروف التي أتعلمها إثناء الدرس ومحاولة معرفتها إثناء الاستماع لأغنية تروق لي.

أحرك أصابعي بشكل الحرف الذي أسمعه، أرسمه في الهواء محاولا النطق به قدر المستطاع. . أتعثر كثرا في الاحتفاظ به وأدير لساني حول إصبعي لأقنع نفسي بأنني قادر على الذوبان بين الحروف.

أراقب حركات "حمامة: ومنذ الأيام الأولى لنضجي عمرا لا جسدا، كنتُ مولعا في التحديق إليها. . شعرها، ملابسها. . ضحكاتها، شمسها الأنثوية التي أخذت بالنمو. . كل ذلك يجعلني أعظ شفتي السفلى بسني الكبيرة حتى أقارب أن أدميها كلما اقتربت "حمامة من" سالم" وأنظر اليهما من زاوية عينيَّ الصغيرتين مثل

أزرار قميص.. أحرك رأسي يمينا ويسارا، أضغط بكتفي على وسادة وضعتها "سحر" حول رقبتي.

كل ما يخص "حمامة" يخصني، أجمعه بأدراج روحي، أخزنه وأنظر إلى "سالم" في مشيه بحرية، والأكل بكثرة وأنا غير قادر إلا على بلع لقم صغيرة وقليلة أثناء الوجبات الثلاث.

لم أظهر حسدا أو غيرة، لكن "سحر" كانت تشعر بكل تصرفاتي، وأنا بدوري أحاول إيصال هذه الفكرة إليها من خلال الضغط على كفي بأصابعي النحيلة.

تعودت مني الضغط على كفي ساعة رغبتي في السكون أو الحركة أو سماع الموسيقى.

أعطيها لكل ضغطة معنى معينا، تفهمه هي وحدها لتلبي طلبي.. رغبتي في الاستماع أو البقاء في غرفة الموسيقى لفترة أطول.. أضغط بإبهامي وإصبعي الوسطى، ثم أكز على أسناني بحرف السين.. اس.. اس.. اس... وأجمع شفتيَّ إلى بعضهما وأقول: امم.. امم أمممم.

أنها بعض حروف كلمة موسيقى.. يا للروعة.. يبهجها سماعها مني، تراها أغنية خاصة لي ولنفسي.

في السرير أختلي مع "أحمد" دون لقب.. أصمت وعلامات الاستفهام واضحة في عيني وأصابعي المتحركة عشوائيا وبانتظام.

كتلة من الحزن والألم والمرض، كيف يصبح المرء هو الجرح وهو المبضع.. هو الداء والسم الشافي؟

أختصرها بصمت وألتف حول نفسي مثل من ينتظر حكما مؤبدا بالسجن.

أنا سجين روحي المعذبة بإعاقة، وأب فاقد كل معنى الأبوة، وأم لم أرها ولم أتعرف على نبضات قلبها ساعة رضاعة.

عظامي المنبوذة في جلد ملتصق بها.. خداي النافران من وجهي.. عيناي الغائرتان في محاجرهما.. ركبتاي الصغيرتان وساقاي النحيلتان..، كلي بالنسبة إلى الفراش مجرد كتلة ساخنة على الوسادة.

أفهم ما يدور حولي وأتغابى وقتما يدور في خلدي سؤال أعرف جوابه مسبقا وأحرص على استعادته لأوجع نفسي.. أقول في ذاتي أن أبي يعاقبني في تجاهله لي وإعطائي حياة دون أب.

وجهت لي "سحر" سؤالا دار في خلدها، فهززتُ كتفي وكفي.. بما أن يدي اليسرى أكثر نشاطا من اليمنى وأصابعها أطول قليلا... أحركها بحرية.. مسكتْ بها وشددتها إلى صدرها أتتبع أمواج أنفاسي كيف ترسو إلى ساحلها لتستقر إلى شاطئ هادئ.

ذات مساء جفاها النوم.. فارتأت الخروج إلى الحديقة.. لكن وهي في الطريق مرت بالعنبر لتطمئن علي وتغطيني والآخرين.

سمعت نحيبا متقطعا وخفوتا، حاولت معرفة مصدر الصوت دون أن تفتح الضوء.. عرفت أنه أنا.. عنقودها القريب إلى قلبها.. حين علمت بُها أغمضت جفني.. جلست قربي على السرير ولاطفت شعري بنعومة متسائلة:

- ما بك "حمودي".. عنقودي الجميل.. هل تشكو من شيء؟

لم أجبها، بل نزلت دموعي الصامتة بغزارة.. خشيتْ إيقاظ الباقين فأجلستني على الكرسي الخاص لتنتقل بي إلى باحة الدار.. لمستْ بللا في ملابسي فغيرت الحفاظ وغطتني ببطانية خفيفة... سرنا بهدوء إلى اتجاه شجرة أحب الجلوس تحت ظلها.

بدأت تغني أغنية أهز لها رأسي وأحفظ من كلماتها قليلا،

كتبتها على الورق وفي الهواء مرارا.. هدأت نفسي بالتدريج مع هدوء الهواء المتحرك غفلة بين الأغصان.

ضمن أسئلتها الموجهة إلي سؤال عن اشتياقي لأبي.. ما إن سمعت منها السؤال دار الحزن في روحي ثانية.. تسلل اللوم إلى نفسي ووقع صمت الجواب بيننا كوقع الصقيع.

الرياح حائرة في دواخلي، يعصرني أزيزها فأعزم على الاتصال بأبي لعله يحضر ولو مرة في الأسبوع..

تحصلت "سحر" على رقم هاتفه من الإدارة واتصلت في الساعة الواحدة ظهرا.. وليتها لم تتصل.. استغربت البرود في صوته.. ويبدو أنه كان في خلوة مع امرأة.. لكنه وعد بالزيارة قريبا وتفوه بكلام ألمها:

- أنا أرسل نقودا إليكم لرعايته، ألا تكفي الفلوس؟

كانت تقول دائما:

- "عنقود" كالبحر يتأوّه بهدير عارم وأمواج صاخبة... كثيرون حولنا مصابون بعمى في إنسانيتهم، يمشون حفاة على مرايانا.. ويتركوننا نتهشم تحت أقدامهم.

ليلتان مرتا يثيرني ويبكيني فيهما أي شي.. لم أعد أهتم بجمع حصيلة رسوماتي تحت الوسادة، وأخبئها عنها رغم علمي بمغرفتها السر.

في نفسي سكون الريح المنذر بقدوم العاصفة.. أحدق دائما في السقف وصوب الفراغ.

ما الذي يقود أب لتجاهل ابنه؟ مر الأسبوع دون خبر منه.. لكن في النهاية لم يهتم لأمري، استعضت عنه بحب "سلوى وسحر" وصرنا صحبة أربعة.. أنا "وسلوى وسحر ورابعتنا المعشوقة حمامة".

فكرتْ "سحر" بطرق كثيرة لخروجي من عزلتي الجديدة.. تقرأ علي الشعر مساء وتسمعني الموسيقى بكثافة أكثر من الباقين.. وتشتري لي هدايا بسيطة كلما خرجت للتسوق.. هي مثلي وحيدة، فصرتُ سلواها وهمها كما هي عوضتني عن أسرتي.

لاحظت امتعاضي من وجود" سالم" معنا دائما، وكلما جلس "سالم" قرب "حمامة" ضغطتُ على يدي بقوة وبأصابعي المتعبة أحتضن كفي.

أترك رأسي متدليا على رقبتي وأنظر إلى السقف وأنا أضم كفي بأصابع لا قوة لها غير قوة الصمت.

تعرف أنني أخبئ حبا في صدري" لحمامة"، وميولي تجاهها أصبح واضحا لها و"لسلوى".. بينما "سالم" في عالمه الخاص و"حمامة" تبادله عالمه.

قالت "لسلوى" ونحن في أمسية باردة:

- لقد كبر أولادنا وبدأت روح الشباب تدب فيهم.

- أولادنا؟

- نعم أولادنا وليس لنا غيرهم هنا.. هكذا يحلو لي تسميتهم كما ليس لهم أحد غيرنا.. " أنت أم حمامة وأنا أم عنقود".

ضحكنا بود واحتضنا حبنا.

الضباب يغلف قلوبا والشمس تجلو قلوبا مشرقة مثلها.. يتسلل الشوق إلى نوافذنا إنما الغربان تنعق على نوافذهم المغلقة.. هكذا هو قلب أب انقاد لنزواته وفوضاه وأمواله.

في ليلة العيد احتفلنا نحن الخمسة احتفالا خاصا بنا، اشترت "سلوى" الحلوى والعصائر وخبأتها لحين نختلي معا، وذهاب بعضهم لقضاء العيد مع أسرهم خاصة القادرين على الحركة منهم.

فكرتا كيف تهبانا ليلة خاصة.. أشركتا معنا الآخرين من كان

عملهم ليلا.. أكلنا ورقصنا بمرح ووزعتا الحلوى والعصائر أثناء صخب الموسيقى والرقص.. رقصت "سلوى" معي ودارت بي والكرسي حول الآخرين لأهنأ.

كنت أعبر عن استمتاعي بهذه اللحظات الجميلة برسم إشارات الحروف والكلمات في الهواء وأتطلع إليهم، ثم أنظر إلى "حمامة" المشغولة برقصها الهائج.. فهي لا تعبر عن نفسها إلا بهياج غير معروف ومبتذل.. حركة ودوران حول الآخرين وابتسامة بلهاء وإصدار أصوات أغرب من رقصها..

أما "سالم" فكان يشبهها في كل شيء إلا قليلا من الوعي.. وكلما تعب جلس ملتصقا "بها لاعقا كفه ماسحا لعابه في ثياب حمامة جهة الصدر.

لم يشأ "سالم" الذهاب مع أمه لقضاء إجازة العيد، كما أنها تركته على حريته لغاية في نفسها، خاصة حين شاهدته في اليوم ذاته يضع يده على يد "حمامة".

الرحلة السادسة

سأتشبثُ بالسماء مثل أذرع تأخذني إليها عاليا

أسألك الآن يا "احمد" عن مشاعرك وأنت في الحفل.. ما الذي يدور في خاطرك؟ حضور أكثر من مئة محب للإبداع، بينهم نساء جميلات وصبيات بعمرك تشتهيهن رجولتك، ما يدور في فكرك الآن بحضور الصحافة؟

- أشعر يا "عنقود" برغبة في قتلك؟

- تقتلني؟ هل جننت؟ نحن في أوج فرحتنا والاستمتاع بموهبتنا التي شدت النقاد والمهتمين.. أما تراهم يقفون كثيرا عند اللوحات رغم أن أغلبها باللون الأسود؟

هذا يعني حتى الأسود انتصر واستحوذ على الإعجاب.

- أتدري "أحمد" الملعون كيف رسمتها، وما كنت أعانيه لتأخذ شكلها الأخير؟

لم أتصور يوما أنك ستكون بهذه القسوة.. ويحي كيف كنتُ بحاجة إليك وأنت تقول الآن بعد انتصاري تشتهي قتلي.

- لا تفرك أصابعك يا "عنقود" ستقضي عليها وهي مجرد عظام هزيلة. أتحاسبني الآن وأنا قضيت وقتي كله أصغي إلى زجاج وجهك وفي كل لحظة توقعت تهشمه.

ما أشد غبائي وقت استمعت إلى إصرارك بعدم البحث عن وجه حبيبتي بين الحضور.. كنتَ لا تريد حضورها.. من يدري ربما بطريقة خبيثة منك لم توجه لها دعوة ولم تخبرها أصلا عن موعد الأمسية.

أنتَ لا تحب إلا من هم على شاكلتك.

لم أسمع صوتها عبر الهاتف منذ فترة، ماذا قلت لها.. هل شحنتها ضدي؟

- وهل نسيتَ يا صاحبي أن الكلام صعب علي؟

- لستُ صاحبك.

- بل صاحبي وسترافقني إلى الشقة ونجلس معا نكمل قراءة فصول الرواية.

- كيف والجميع سيلتفون حولنا.. لنا غرفة فقط في شقة دكتور "محمود".

- سترافقني إلى غرفتي ونقرأ.

هل تعلم أنني كنت أراقبك جيدا وأنت تضغط على ذراع "صفاء" وتنطق اسمها بحب وشهوة؟

حتى رسائلك إليها كنتُ أقرأ بعضها وأخبئ رأسي خجلا من الأخرى، لأنك بعض الأحيان تكون شبقا في كتابتك.

كم تمنيتُ لو يدي على خصرها وليست يدك.. حقدت عليك لمخاصمتها ولعدم حضورها بالموعد المحدد للذهاب إلى السينما، وحقدت عليك أكثر وقت التصاق جسدك بجسدها وتقبيل عنقها في ظلام السينما.

- دعنا من حديث الحقد الآن واخبرني، هل فكرت ببيع لوحاتك؟ ولمن سيؤول ثمنها؟

ربما تفكر في رسم لوحات أخرى أليس كذلك يا "عنقود"؟ كف عن انفعالك وارتجاف رأسك.

لم أرغب بقطع حديثي فواصلتُ:

- وكنتُ أراك أيضا تلعب بخصرها وترفع قميصها قليلا لتستقر يدك على مؤخرتها، خاصة في الظلمة، بعد استراحة الفلم تقرصها من فخذها، كنت وقحا أكره هذه الصفة فيك.

- لماذا تبوح لي بهذا الأشياء الآن ولم تخبرني عنها سابقا؟ كنتَ تتوسل كي أخرجك معي، الآن صرتُ القبيح واللئيم والحاقد؟ ما بك الآن يا رفيقي؟

- مرة تناديني رفيقي، وأخرى صديقي، وأخرى عنقود، وماذا بعد وقد أعلنتَ عن رغبتك في قتلي؟

- لا شيء يا صاحبي "عنقود" فقط استمتع، وابتسم، عش لحظتك ألا تحب الفرح؟

"سحر" قرأت المقدمة عنك والجمهور التف حولها وغيرت هي مسار ذلك، وخلصتك من أي إحراج. ها نحن الآن نجلس بهدوء بفترة الاستراحة ليتناول الحضور المرطبات والكيك والشاي، مع ذلك نحن نتخاصم الآن والمفروض نقف معهم ونحدثهم عن منجزك العظيم، لكننا انزوينا وتركناهم وحدهم، بينما "سلوى وسحر" تختلطان بهم وتواصلان التحدث عن تجربتهما في تحويل الإعاقة إلى فن وجمال وحياة.. ثورة الممكن على لا ممكنه.

- هي تجربتهما أيضا وأنا أكن للجميع التقدير وسأرد لهم جميعا بعضا من وفاء.. فمهما قدمت لهم لن أفي أي أحد منهم.

سأصافح أحد المعجبين المتوجه إلينا.

استدرتُ فجأة لأرى فلم أره.

يخالجني شعور بأن هناك مَن يترصد خطوي.. أوعزت ذلك إلى أمر طارئ بحالتي النفسية وقد يمر بسرعة.

امتدت يد رقيقة وسحبت يدي ثم طبعت عليها مسحة خفيفة رقيقة.. اهتز بدني برعشة مثلها وانتكث مثل سعفة مر عليها الهواء بعد سكون.

سحبتْ أقرب كرسي وجلستْ تسألني فيما إذا لها الحق بشراء لوحة ما، أية لوحة أقررها أنا... احترتُ كيف سأغلب الخجل بداخلي وأقهره.. لابد أن أنجو الآن من الذي يترصدني، ربما شعور مؤقت، أو الخوف تتبع أثري إلى القاعة وجاء ليراني على حقيقتي..

أشرتُ إليها بإبهامي إلى اللوحة الثالثة.. لأني رسمت "أحمد" وهو يعانق "صفاء".. فرحتْ باختياري وطلبت توقيع إهداء خاص إليها على اللوحة.

نهضتْ فجأة شاكرة لي:

- سآتي نهاية المعرض في اليوم الثالث من الليلة كي أتسلمها.

لاحظتُ "أحمد" مستغربا كوني خصصت لها لوحتي هو يعانق "صفاء".

سألها: لماذا تذهبين، اجلسي قربه قليلا.. أشرت بـ"لا" دعها على راحتها.

همس في أذني "احمد": لماذا بعت هذه اللوحة بالذات؟

أطبقتُ فمي ولم أرد عليه.

بعدها بثوان، أشرتُ إليه:

- أنتَ لا تفهمني، لا يمكن أن تفهمني.قلتُ ذلك وكأنني مخطئ أو مذنب، ثم التزمتُ الصمت كل الوقت... فرحت لبيع الكثير من نسخ الرواية.. مع هذا لم أنطق بكلمة واحدة.

عدنا إلى شقة محمود، وجميع أسرتي في الدار يلتحقون بنا، إثناء دخولنا الشقة رأيت مفاجأة أعداها "سحر ومحمود "لنا. حفلة خاصة ومائدة احتوت ما لذ وطاب.

التزمتُ الصمت متداعيا واهِنا، لكن شعرت بيد "سحر" تلمسني بحنو المنتصر. قائلة:

- سأجلب الكيك وأطفئ شمعتك الأولى. شمعة أولى الثمرات يا عنقودي الغالي.

التفوا حولي جميعا مصفقين مهنئين والفرحة تغمرهم كلهم.. كلهم ما عدا "أحمد".. أوعزتُ ذلك إلى غيرة فيه عهدتها سابقا ولم تخف علي.

لكنني شاهدت دمعا في عينيه.

- معقولة؟؟ أحمد يدمع؟ شيء غريب.

قلتُ ذلك وسحبته من يده ليشاركنا إطفاء الشمعة.

اشترطتُ أن نطفئها كلنا معا فهي شمعتنا نحن وليست لفرد واحد.

غادروا كلهم راجعين إلى الدار.. أدخلتني "سحر" غرفتي ثم جلست قربي ومسحت على شعري:

- قلتُ سابقا بأنك تختلف عن الآخرين.. وها أنت ترى كنتُ على حق.

قبل مغادرتها طلبتُ منها عدم إطفاء النور.. هي قادرة على قراءة أفكاري، بل عودتني على ذلك.. مما أثارت الشك في نفسي أكثر الأوقات بأنها تترقب سلوكي وبعمق العارف.

استدرتُ إلى "أحمد" قائلا:

- عليك استكمال الرواية الليلة وليلة الغد، بعد ذلك سينتهي كل شيء.

- أهذا فرض؟ قالها بتذمر وسخرية.

- نعم فرض، أو سمه ما شئت، ثم اقترب مني أكثر كأنه ينوي الدخول

إلى أذني ليسمعني سرا:

- سأقبل فرضك لأنك تثيرني بأدق التفاصيل ولم تنس منها شيئا.

فتح الرواية على الرحلة السادسة.. وكأنه يبحث عن سؤال ما، أو علة ما بين الأوراق.. مكث ساعة يقرأ وأنا صامت أنظر إليه وأنتظر أية همهمة تصدر منه أو إشارة انفعال... تكررت التفاتته لي ثلاث مرات.. كنتُ أتوقع منه اعترافا، أو إفصاحا عن شيء، أو توبيخا من حدث استفزه ولم يرق إليه.لكنه لم يفعل.. فقط أندس في فراشي، سيطر على هواجسه وأعطاني ظهره.

في السطر الأول من الرحلة السادسة كتبتُ:

*

كانت "سحر" تبحث لنفسها عن سبب يكذب ما تراه من حالة حب غريب بين معوقَين منغوليّين، وتسمع من "سلوى" القول ذاته:

- لابد أنك مخطئة، هؤلاء يتصرفون غريزيا وليس عشقا.

تعرفهم عاطفيين ورومانسيين يحبون الجمال كيفما كان، يصلون إليه بطريقتهم الخاصة وحسب فهمهم إليه وقربهم منهم.

كانت تمنحني عذرا هو بالنسبة إلي كأجنحة تعلمني الطيران، وتجعلني أعلم أن إعاقة الجسد لا تعني إعاقة الروح والقلب.

رغم ذلك كانت هيأتي لأتقبل ما أنا عليه وتعلمني كم من الأشياء تهب الحياة بعيدا عن الأسرة.

افترضت أنها تشاطرني الرأي في بعض الأمور بسبب صمتي إذا اعتبرت الصمت إيجابيا.

الوقت تواطأ مع العيد، والعيد أعطانا فرصة يوم أجمل من باقي الأيام.. لولا وعكة صحية أصابتني عصرا.

اتصلوا بالطبيب المناوب في مستشفى قريب من الدار، وتتعامل معه المديرة إذا حصل أي طارئ، إضافة إلى طبيب زائر يمر بالدار كل أسبوع للتأكد من صحة المعاقين.لكنه تأخر أكثر من ساعة، بحيث بدأت هلوسة الحمى علي واضحة.. فأثارت ريبتهم والإسهال الحاد جعل "سحر" تغير لي كل عشر دقائق.

كنت أشعر بالخجل منها في بادئ الأمر لكنني تعودت عليها مع مرور الوقت.

واليوم أنا أستنجد بها لتغير ملابسي، ذلك كون "حمامة" واقفة قربنا ولا أريدها أن تشم رائحتي.. استنجادي بها يأتي أثناء ما تضع على جبيني اللفائف الباردة لتخفيف السخونة.. فأضغط بقوة، وأية قوة، مجرد أصابع تمر مرورا بائسا.

وصل الطبيب حاملا حقيبته، ولما شاهدهم قلقين جدا، هدأ من روعهم:

- لا باس عليه يبدو أنه أكل شيئا قاسيا على معدته ولم تتحمل فأصيب بإسهال.

أخذها جانبا موضحا لها:

- سيدتي.. أكيد "عنقود" يمر بظرف نفسي وأعصابه مضطربة والإسهال نتيجة لهذا الاضطراب، فعاملوه باحتضان ربما يشعر بغربة أو وحدة.

ثم أعطاني حقنة لتخفيف الإسهال مع مهدئ وكتب وصفة جديدة لمدة أسبوع.

بعد عشر دقائق صحوت من نوبة السخونة، لمشاهدتي

"سالم" يضع يده بيد "حمامة" أدرت وجهي إلى الحائط وثنيت ركبتي على بعضهما وأدخلت يدي بينهما صامتا.

صدح عصفور على الشجرة فغدوت مستأنسا بين الصحو وغيمات بيضاء يكدن يمطرن غزلا وحبا لروحي ويشاطرنني انطوائي.. ويثرن الصحو فيَّ.

الجميع يعرف أنني أهوى العصافير وأتابع طيرانها بين الأغصان في الحديقة، لذا قالت لي "سحر":

- جاء العصفور يقدم تهاني العيد لولدي وعنقودي الأحمدي، فما رأيك لو أدرت وجهك صوب الشباك لترد عليه التحية؟

لم أصغ إليها، فثمة لمسة حزن تسري في بدني، حزن مشوب بالعزلة والوحدة حتى وأنا بين ضجيج الآخرين وصخبهم.

وضعتْ أصابعها في كاس ماء ورششت رذاذه على وجهي تمازحني بنشوة الرذاذ الخفيفة.. وتقتسم معي الألم.

لم أقبل منها أي شيء، باستثناء زهرة حمراء قدمتها لي "حمامة"، قطفها "سالم" من الحديقة وقدمها إليها ظهرا ونحن جالسين على مائدة الطعام، فبادرت بابتسامة وإصغاء روحي لهذه الزهرة الغالية علي.

لمعت عيناي الضيقتان وبدتا كسماء واسعة، ثم شعت منهما نظرة لامعة.

كنت على حافة حلم جمل، وقلبي ينبض بسرعة، تدندن روحي بنغمة خاصة "لحمامة"أنظر إليها برهة وإلى الوردة ثم أطرق رأسي خجلا.. وجبيني ينضح عرقا.. تملكتني قوة اخترقت جسدي وطلبت من "سحر" إزاحة الغطاء عني.. في لحظة تدفقت كل الأشياء في وجهي وكأنني استذكر شخصا عزيزا علي، فقدته منذ زمن وعاد على حين غرة.

فرحوا جميعا وقت طلبتُ ماء وبعض البسكويت بإشارة من إصبعي. عهدوا مني رسم ما أبتغيه بكتابة إشارات في الهواء بمصاحبة همهمة غير مفهومة.

جلبت "سلوى" عصير برتقال وبسكويتا محشوا بالفانيلا والسكر قدمته إلي. تناولت قطعتين وقدمت اثنتين "لحمامة" التي راحت بدورها تقدم قطعة "لسالم" وأكلت الأخرى دفعة واحدة.. استشطت غيضا ورميت البسوكيت الباقي والعصير على الأرض احتجاجا لفعلة حمامة.

الذي يخفق بين ضلوعي شيء غير عادي.. علمتا به "سحر وسلوى" وأدركتا غيرتي وسبب مرضي، "وحمامة وسالم" لا يعيان ما يحدث نتيجة تقربهما إلى بعضهما.

شيء ما أيضا ينبض بقلب "حمامة" مثل شاطئ تلبَّسها لا تدري كيف تصل إليه ولماذا يتحرك هذا الشعور بداخلها.. "لسالم" دور كبير في إثارة غريزتها كما غريزته المحركة كل جسده وقلبه باتجاهها.

كلما مسها "سالم" أو جلس قربها في حصة الرسم مدت لسانها المبلول برضابها وزمت شفتيها عاكفة أفنها وحاجبيها محاولة التعبير عن حالة لا تدري كنهها ولماذا تفعل هكذا كلما شمت رائحته.

الأمكنة كلها متشابهة كل يوم والأكل ذاته والخطوات ذاتها.. إنما أصبح لها طعم مختلف الآن.. في حصة الرسم أو الموسيقى لا يختاران إلا المكان الذي يقربهما إلى بعض، وعيني تلوذ بوحدتها ودمعها المكبوت.

أصبحت انطوائيا ولا أرغب في التنزه بحديقة الدار عصرا مع الآخرين مهما تحايلت علي سحر أو أرغمتني.. أرفض بقوة زاعقا

بصوت يخرج من وسط حنجرتي فأثير إزعاج الجميع لقبح ما يسمعون.

كانت "سحر" في غاية الحزن علي، وترجو لي الشفاء مما أنا فيه.. تدرك تماما أنني في حالة غرام، فأنا في السابعة عشرة الآن ومعاق بدنيا أكثر مني عقليا.. حتى باتت سلوى تتساءل كلما دخلت لحظة انطوائي على ذاتي:

- ترى هل يمكن أن يعشق المعاق عقلا وبدنا؟ وهل ما نراه حالة استثنائية أم هي حقيقة لا بد من الوثوق بها، كونهم بشر مثلنا لهم ما لنا من عاطفة؟

أجابتها "سحر" على حيرتها في أمرنا:

- لم أنظر إلى "عنقود" أو أي نزيل في الدار إلا وبحثت عن الإنسان فيهم مستنهضة ما أمكن من حركات انفعال يعبرون بها عن دواخلهم وما يعتريها من يقظة سرور وبهجة لمسة حنون.

لماذا نستكثر عليهم حاجاتهم الجسدية وخفقان قلوبهم ونداءاتها المستفيضة ساعة اقتناص نظرة وملامسة يد ليد؟

لماذا نهيئ أنفسنا لنظرة استعطاف بدلا من النظر إليهم على أنهم ناس عاديون؟؟ ربما هم يعطفون علينا من يدري!

"سالم" الناضج جسدا حتى عطري يستفزه وليس اهتمام "حمامة" وإصرارها على تقليدي في مواضع العطر، سواء خلف الأذن أو على الرقبة وتحت الشعر... هذا التقليد بحد ذاته أنوثة ورغبة.

نحن نعبر بالخفاء عن الهمس واللمس والنظرات، وهم يعبرون بلمس واضح ونظرة معلنة صراحتها دون خوف من أحد.. هم أشجع منا وأكثر حرية كونهم لا يرون ذلك عيبا ونحن نضع عليه ألف عيب وحرام وممنوع.

ألا ترين رفض "سالم" الذهاب مع أمه نهاية الأسبوع إلى داره؟

أكيد حنان حضنها أكثر غزارة من حناننا، لكن هنا "حمامة".. الأنثى التي حركت غرائزه، وهنا تعرف على نفسه كإنسان يعد الأعداد ويفهم الإشارات والصور ويتحاور قلبه مع باقي القلوب.

جلست "سلوى" إلى أقرب كرسي تراقب أحد النزلاء في العنبر الخاص لعنايتها ووجهت سؤلا فاجأ "سحر":

- وما نهاية الحب بين "سالم وحمامة"؟ وماذا عن "عنقود" كيف نعالجه؟

- والله لم اسأل نفسي هذا السؤال.. لكن دعيهم يعيشون لحظتهم فأعمارهم قصيرة وربما يباغتهم الموت على حين غرة.

ذات يوم، وأنا منهمر مع "سحر" والعشق الذي ملأ قلبي وكياني، فاجأتنا المديرة بطلب حضور "سحر" إلى غرفتها سريعا.. ما إن دخلت حتى وجدت رجلا شارف الخمسين، سمين وذو شارب كثيف، قدمته إليها:

- أعرفكِ بالسيد غفَّار والد عنقود".

رحبت به كثيرا ورجته التواصل معها، . لكنه أجابها:

- صحيح كلامك يا أختي لكنني رجل أعمال وأشغالي كثيرة ونادرا ما أكون في القرية، لأنني اشتريت دارا في العاصمة وهناك أتابع أعمالي.. وسفري حسب مقتضيات العمل والبضاعة.

خذي هذا المبلغ هدية لاهتمامك الجاد بابني.. كما أرجو توزيع الحلوى على المرضى والقائمين في خدمتهم.

شكرته وخرجت غاضبة، لأنه حتى لم يكلف نفسه لرؤيتي، أو يضع يده على قلبي ورأسي وكأنني عالة عليه يريد الخلاص منها.

وقتما اقتربت من الباب طلبت من المديرة الاحتفاظ بالمبلغ في خزينة الدار لصرفه في شراء لوازم الإيضاحات للمرضى، ثم وجهت إليه الحديث:

- شكرا على الحلوى، للأسف "أحمد" لا يستطيع تناولها بسبب وضعه الصحي.. حتى مكرمتك لا يستطيع تذوقها.

غضبت المديرة لكلامها لكن السيد "غفار" هدَّأها:

- لا عليك سيدتي.. الآنسة محقة، وأنا فعلا مقصر مع ابني، وعملي يرغمني على فعل ذلك.. خصوصا أني غير متزوج لأصطحبه معي إلى الدار في نهاية الأسبوع ودائما أنا خارج القطر.

لم يسألها عن وضعي الصحي، ولماذا لا أستطيع تناول ولو حبة من الحلوى.. ربما سأل المديرة بعد ذلك لا أدري.

رجعت إلى العنبر وأجلستني على الكرسي المتحرك، ثم راحت تطوف في الحديقة، وتتنقل من شجرة إلى شجرة، تسمعني أصوات العصافير وتريني لون الورد، وتقطف منه الأحمر لعلمها بولعي بهذا اللون..

تقص علي بعض القصص وتقرأ ما حفظته من أشعار، تشير بأصابعها لبعض الكلمات وترسمها في الهواء مثلي. لكنها كانت منفعلة، ربما تصرفت بعصبية خاصة في المشي، لاحظتُ أنا ذلك.. بدأت ألاطفها وأضع يدي النحيلة على يدها، وأعظ بسني الكبيرة على شفتي، ثم أدير رأسي باتجاه وجهها.

لم أكن أعرف مَن منا أحوج إلى الحنان الآن.. ربما كلانا بحاجة إلى احتضان.. لذا ضمتني إلى صدرها بقوة وانتحبت. لا بد أنها فكرة الحزن العميق والفقد جعلتها تتصرف هكذا.. ما أن سمعتُ نحيب قلبها حتى أجهشتُ في بكاء مر.. بقيت صامتة تنتظر قلبي حتى يستكين.. انتابتني ساعتها سكنات الفراغ وأخذتني إلى عالما الموحش.

تلح عليها فكرة إدخال الفرح إلى قلبي.. تلح بقوة.. رغم ذلك تقف عاجزة حيال تنفيذها، وكيفية الوصول إليها.

هرشتُ صدري بعصبية، أغمضت عينيَّ بقوة في اكتشاف شيء لا أريد غروب صورته عني.. وفتحتهما مثل ثمرة ناضجة.. زاغ بياض عيني والتصق بين جفني، ثم استعدته ثانية مبتسما إليها.

ضحكتْ بصوت عال.. ضحكتُ من أعماق الوجع، بحثا عن منال مفقود.. أنا بصوت ألمي وهي بصوت حزنها.

أعادتني إلى العنبر، غيرت ملابسي وألبستني منامتي.. ثم أرجعتني إلى غرفتي تجر قدميها بتثاقل.

لم تشأ تركي أنام دون ملاطفة، ها هي تبعد عن روحي طيف الغم والانطواء اللذان رافقاني طيلة تعلقي "بحمامة".

عادت إلي وطبعت قبلة على جبيني، ثم أطالت التصاق شفتيها على جبيني الساخن.. مسحت على كفي وقبلت عيني.

رجعت "سحر" إلى غرفتها، وفيما هي تستعد للنوم سمعت صرير الباب، وإذا بـ "سلوى" تدخل ومعها "حمامة".. كانتا تشعران بجفوة النوم.. سألت "سلوى" حين جلست قربها على حافة السرير:

- ما الذي جاء بـ "حمامة" معك؟ هل أقلقها الفقد مثلي والتصقت بك؟ أم جئتما تحتسيان ساعات السهر في فنجان الليل؟

عبرت "سلوى" عن ابتسامة وطلبت من "حمامة" الجلوس قربها:

- كنت أتقلب في فراشي بسب جفوة النوم.. فوجدتها تأتي إلي ترفع الغطاء وتتمدد قربي بابتسامة مكشرة عن أسنان صغيرة.. وحين قررت المجيء للتسامر معك التحقت بي.. هل ترفضين مجالستنا يا غالية؟

- مستحيل.. على الرحب والسعة.. أنا أصلا بحاجة لمن يشاطرني لحظتي.

رغبت بالسؤال عن اسم القرية، فوجهته إلى "سلوى" :

- قرية فرج.. لماذا فرج؟ ومن هذا الفرج؟

أجابت بتردد:

- سمعتهم يقولون أن رجلا اسمه فرج جاء من مكان ناء إلى القرية، وكانت وقتها غير مأهولة بالسكان، شيَّد دارا طينية وعاش وحيدا يزرع النخيل، حتى تكاثر وأصبح يملأ المكان، كما شق نهرا صغيرا للري أخذ اسمه أيضا، " نهر فرج".

برغم ضجيج المرضى وأصواتهم الشبيهة بصوت حيوان مخنوق.. أو كمواء. إلا أنهما قضيتا وقتا جميلا.

في لحظتها سمعتا صوتا مهتاجا.. هرعتا مسرعتين تلحق بهم "حمامة "إلى مصدر الصوت، فوجدتا المصدر مني. كان جسدي متشنجا وعيناي تبحلقان في السقف، أزفر بأنين مزبد الشفتين.. خشيتا إصابتي بنوبة صرع، لم تعهدني "سحر"هكذا سابقا رغم ما يصيبني من مرض.

أسرعت "سلوى الاتصال بالطبيب المناوب في المستشفى.. وبعد جهد وانتظار ومعاينة وفحص قرر عرضي على طبيب نفسي، فأنا لستُ مريضا وما أعانيه نتيجة لرفضي قسوة وضع جديد علي، أكد ذلك مرتين.

اعتدت تدوين كل شيء في دفتر ملاحظاتي.. لم أترك همسة أو لمسة أو كلمة إلا ودونتها.. حتى أن "سحر" اقترحتْ علي كتابتها كرواية لمعرفتها بلغتي الجميلة وأسلوبي.. كل ذلك بقوة إرادتي في التعلم وبمساعدة سحر، صاحبة الفضل الكبير علي.

كتبت على قصاصة ورقية:

- من يدري.. ربما سأوصلها إلى شكل رواية.. علما أنها مجرد ملاحظات ويوميات لا تعني القارئ.

أجابتني:

- أظن فيها أنفاسكَ والقارئ ذو القلب الرقيق سيبحث عنها وعنك فيها.. وستحتفل الدار بكاتبها المهم... الحياة لا تخلو من قارئ يتعرى لمطر المعاقين ويكتسي بهم.

صهل الكون في مخيلتي واستدرت إليها أخبرها عن قدرتي الكتابية في التعبير:

- أتدرين صديقتي.. أحيانا حين تبرق السماء معلنة عن مطر قادم أتصورها ضياء نقرأ فيه مطر الله.

قلت ذلك في قلبي الصامت، وتركتها تستوعب صمتي الناطق.

لم أتصور يوما نفسي كاتبا.. لأنني أكتب لي وأترك بصمة بؤسي وبؤس الآخرين على الورق.

استهجنت "سلوى" تشجيع "سحر":

- تشجعينه على الكتابة.. ألا ترين المكتبات الآن تضج بكتب السحر وأسرار الطبخ وأسرار المطربين وأجساد المطربات.. فمن يبحث بين رفوف صدورنا عن الإنسان فينا.

أخبرت "سحر" المديرة صباحا عما حصل ليلة البارحة ولابد من عرضي على طبيب خاص.. هي تدري بعمق المشكلة وعمق المرض، فنحن في قرية وليس لدينا مستشفى تخصصي، وهنا مجرد علاج عادي يشبه المستوصف، ولابد من أخذي إلى المدينة، أو تحاول عن طريق أصدقاء الطبيب الزائر ليلا، ربما سيتحرك الإنسان فيه ويتطوع في زيارة خاصة.. وهذا الاحتمال ضعيف جدا.

قالت لها سحر:- لنحاول، لا نخسر شيئا.. وإلا سنخسر "أحمد".

لعنت في سري أبي، ولعنت القسوة بكل ألوانها.

إنما "سحر" طلبت من المديرة مراسلة أية مستشفى أو عيادة نفسية:

- أظن سيدتي العيادة الخاصة أفضل.. سيستجيب الطبيب إذا ضاعفنا السعر إليه.. وخذي الهدية النقدية المقدمة لي من أبي "أحمد" ربما تكفي لسد أجر الطبيب النفسي، بدنه هزيل جدا ولا يقوى على مرض أقسى من المرض العضوي.

استجاب أبي لهاتف المديرة وإجباره على الحضور لأمر هام، لأول مرة يحضر بهذه العجالة، عودتنا أعذاره بالانشغال الدائم والسفر المستمر.. لكنه حضر بمحفظة مليئة وقدم بعضا من نقودها إلى المديرة.. وفي لقائه معها كان يرنو لشيء في نفسه... كلما حاول فتح حوار يضمر فيه نية ما مع المديرة، تلعثم وعجزت عليه البداية.. جمع كل قواه وبادرها قائلا:

- هل تسمح سيدتي لو طلبت يد الآنسة سحر للزواج؟

المفاجأة صعقت المديرة خاصة أنها بعمر أولاده، ولو كانت له بنت لكبرتها قليلا.

احتراما له بلعت المديرة ريقها وصمتت.

قدم لها ظرفا أعده مسبقا:

- خذي وقتك سيدتي، وأيضا الآنسة "سحر".. أظنها ستوافق كونها تهتم جدا بابني، ثم أنها ستسكن قصرا كبيرا معنا وسترى خدما وحشما تحت إمرتها.

بعد ذهابه أرسلت المديرة في طلبها.. وحين دخلت عليها شاهدت استغرابا واستهزاء على محياها:

- "سحر".. اليوم خطبوكِ مني.. (ضحكتْ بصوت عال)

- أنا سيدتي؟ ومن هذا تعيس الحظ؟

- والله سيكون سعيد الحظ وليس تعيسا.

(ثم واصلت ضحكتها العالية ومسحت دموع الضحك)

- إنه السيد "غفار".

وهي ترتشف قهوتها شاركتها ضحكتها:

- هذا المعتوه يريد خادمة لابنه.. خادمة مربية ومحبة، ولن يجد مثلها إلا معي.. سحقا لهذا الكلب... ما ذا يظن.. هل يشتري الناس بفلوسه؟

غادرتها إلى حصة درس الموسيقى، وأسرَّها كثيرا حضوري، وإنصاتي وإصغائي لسماع إيقاع اللحن الشجي.

طلبتُ منها أن تقربني من كرسي قرب "حمامة"، أنافس في جلستي هذه "سالم"، وكنت متعمدا في ذلك.

حالما مالت رقبتي قليلا حاولتُ إرجاعها لوضعها السابق بيدي وسحب الغطاء الذي وضعته "سحر" على قدمي بيدي الأخرى.. رأتني أخبئ شيئا وأحاول استخراجه بروية كي لا يراه أحد.. راقبتني جيدا.. سحبت ورقة رسَمت فيها وجه "حمامة" وقدمتها هدية إليها.

عرفت وقتها سبب حضوري إلى الحصة وفرحت لابتسامة رضا على وجهي ولقبول "حمامة" الهدية.

الرحلة السابعة

ذكرى الألم إحدى حلقات السعادة

بايرون

رغم صغر الغرفة والسرير إلا أنه لا يتسع اثنين، مع هذا رضيت بمشاركة "أحمد" لحافي والسرير، بدقة أتابع جديته في استكمال قراءة الرواية، فتحت أنا أيضا على الرحلة ذاتها.. السابعة.

هو لا يهوى الأغطية البنفسجية علما أنني أرغمته على ذلك، أحب الألوان الناصعة تبعث الانتشاء في روحي.. لذلك وقت وصولنا شقة دكتور "محمود" أحضرت "سحر" الغطاء كما أحب من تلقاء نفسها، فهي حريصة على إسعادي.

لعبت ريح خفيفة بالستائر الزرق، تحركت النافذة قليلا فبان ضوء القمر،

ذكرني هذا الضوء بأولى لحظات جلوس"سحر" قربي على السرير.

الانتعاش الجسدي يزيدني قلقا بدلا من تحفيز رجولتي.. أما بالنسبة إلى الفتاة التي صافحتني في القاعة طالبة تحديد لوحة تشتريها.. في غمرة اندفاعي كنت أحدق في عينها فقط غير مكترث لما تحت ثيابي.

فهو لم يعلمني على شيء، لم يقل لي يوما شيئا.. ما أملكه وقت تقترب مني أنثى إحساس مبهم، فتنازعني انفعالاتي وتجعلني أظن أن الاقتراب من امرأة أية امرأة محض وهم... فعلا كان يقتلني التفكير في اقتراب "حمامة" مني.

فردتُ طولي على السرير وتنفستُ عميقا.. ورغم حصتي الصغيرة من السرير ضجر "أحمد" وراح يصرخ :

- ألا تكف علن الحركة؟ لا تدعني أنام لا أهنأ في القراءة.. تبا لك من رجل ناقص... أنا لست في حاجة إلى مسايرتك.

استمر يا "أحمد" أنا في حاجة ماسة إليك الآن، فأنا حين كتبت كثيرا ورسمت كثيرا.. كنت ابحث عن الطفل الذي ضيعه أبوه، مازلت مولعا بالكتابة والرسم كلما دنا مني الحزن.. لا أستطيع التلاؤم مع هذا العالم إلا بالإبداع.

هناك عدم رضا يسكن أحشائي، كتبت ومزقت كثيرا حتى استقر بي المطاف إلى رواية " الزمن المستحيل"فلا تبخل علي في نهاية الأمر وقد رافقتني من أول حرف فيها.

- حسنا يا "عنقود" سامحني.. لم اقصد إيلامك لكنني متعب حقا وأنت جعلت مني ظلك في الأمسية، والعيون كلها كانت تنظر إليك وتركتني.. يا أخي لم تترك لي مجالا لأغازل أنثى.

- كانت الإناث كلها أمامك ولم تعرهن أي اهتمام، بل كنت تبحث عن "صفاء".. "صفاء" لا غيرها.

- أنا أحببت "صفاء" وأنت أحببت الفن، أما "حمامة" فلم تكن يوما إليك، ولا تشبهك فأنت مبدع والفن يجعلك ترى العالم من منظور آخر.

استمرت الريح تداعب الستارة.. مع بعض سحب خفيفة تحجب القمر ولا تترك له حرية التلصص على نافذتنا.

القمر هو ذاته في كل مكان.. أسأله عن معنى إطلالته من نافذتي، هل عاش حكاية الحب؟هل سامر العشاق فعلا كما يتخيلون؟

ينصت إلي، ورويدا رويدا يختفي بين أحضان غيمة.

كنت راغبا في الرجوع إلى صالة العرض لعلي أجد تلك الشابة الرقيقة.. أن أمشي معها، أن أمسك يدها أو أدعوها إلى مقهى لتناول العصير.. أن أتحرك مبددا كل ما لي من طاقة.. أو أقبل يدها.. أشرح لها اللون الأسود وسحره على الورق الأبيض. لكن!

ظل الوقت بطيئا، وظل "أحمد" منسجما مع الرحلة السابعة.

قبل الشروع بدخول هذه الرحلة، تركني قليلا ثم عاد يحمل بين يديه شطيرة بالجبن.

حدثني وهو يلوك لقمه: - الليل طويل ومعدتي غاضبة علي من القراءة ولابد من إسكاتها.

سمعتُ "سحر" خرجت من غرفتها متوجهة إلى المطبخ لشرب الماء.

اعتدل "احمد" في الفراش وحدثني بجدية:

- سأقرأ بأقصى سرعة كي أصل إلى النهاية.

- ثم سألني:- لماذا كان التنافس على أشده بينك وبين "سالم"؟

حركت يدي استنكارا وطلبت الاستمرار بالقراءة.

*

كان التنافس على أشده بيني وبين "سالم".. يستيقظ الأسى بدل الحلم، أو فكرة المشي والحركة، بينما "سالم" يتحرك بحرية

ويقرب كرسيه أكثر ليلتصق بـ"حمامة"، أبقى وحدي أراقب عجزي واحتياجي لغيري حتى في شربة ماء.

رغم قربي منها إلا أن "سالم" استحوذ على الإعجاب كله.. هرعت "حمامة" إلى "سالم" تريه هديتي إليها ويتطلعان معا إلى الرسم.. علما أن دواخلي ترفض ذلك، فأنا أريد مشاركة "حمامة" رسمي دون تدخل من أحد.. حتى "سحرْ أخفيتُ الأمر عنها.

بان علي الاستياء ولم أشأ إظهاره لئلا يُكشف حبي لها.. لكنني انطويت على ورقة أخرى ورحت أرسم أشكالا قبيحة غير واضحة.. أضغط القلم بقوة على الورق، أحرك يدي بانفعال، وأتنفس بصوت عال من منخاري فيخرج منه صوتا أخنا.

طلبت "سحر من سلوى" أن تنقلهما إلى غرفة التلفاز لتنشلني من غيرتي وخوفها من عودة النوبة إلي.

انتقلنا جميعا إلى صالة التلفاز.. كان ثمة عطر يفوح من رقبة "حمامة" تضعه تقليدا لسحر.. يستفزها سن البلوغ وحضور "سالم" إلى الدار.

مشى "سالم "خلفها منقادا إلى عطرها، إنما أذهلتُ الجميع بحركات أصابعي، خاصة مدرسة لغة الإشارات.

أعجب ذلك "سحر" كثيرا وجهت كلامها "لسلوى":

- أنصتوا جميعا واسمعوا ماذا يقول "أحمد" إنه يقول شعرا، أنا بأصابعي والمدرسة تترجم حركاتي إليهم:

رسمتها في قلبي وليس على الورق

رسمت روحي التي بين أضلعها.

تعجبوا جميعا من كلامي، وكيف أعبر عن حبي أمام الجميع دون تردد. يعرفون أنني مختلف عن الآخرين.. كما يعرفون إعاقتي

جسدية وليست عقلية مثلما يتوهم بعضهم، ربما ضعف فيها وليس إعاقة. . حمدت "سحر" الله كثيرا على نشاط ذهني واتقاد موهبتي.

أسرعت لتخبر المديرة بالنبأ العظيم:

- "عنقود" يعيش لذة جميلة.

انتعشت روحي وأنا أرى الإعجاب من حولي على الرغم من عدم فهم "سالم وحمامة"لما يدور من فرح وسبب حضور المديرة مسرعة تشاركنا بهجتنا.

انتهزتْ هذه الفرصة وطلبت منها أن يعملوا حفلا خاصا بتكريمي كي يهبوني الثقة بنفسي، كما يسعون في ذلك إلى تحريك الفرح بين أضلعي.

طلبت المديرة من المعلمة التي تجيد لغة الإشارة أن تخط ما كتبته في إشاراتي على ورق كارتون وتعلقه في صالة الدار.

ذهلت "سحر" من إيماءاتي الشعرية، صور تأتي من رسائل مشفرة، مع هذا غمرتها الفرحة:

- كنتُ آمل بك كل الخير يا بني وها أنت تحقق لي أملي.

اضطرب كل بدني ورحت أفسر لهم اضطرابي بحركات مضطربة هي الأخرى. . حركت كفَّي باتجاهات مختلفة. . صدر مني صوت عي يع عوايع، معمعع. . . وبفتور ابتسمت، ولحقتها بابتسامة عريضة، بحلقت بعيني الضيقتين فأظهرت بياضهما. . أدرت رأسي المرتعش الثقيل على رقبتي النحيفة وضغطت على يدي كسابق عهدي ضاما ركبتي إلى بعضهما.

هذه المرة كان ضغط يدي مختلفا. . وصل إليها بلغة جديدة ملؤها الثقة والبهجة.

غادر "سالم وحمامة " ليلعبا في الحديقة، قفز "سالم "بعدما

اكتمل نفخ أنفه وسح زبد لعابه، التحقت به "حمامة" مقلدة حركاته وتركاني أراقبهما عن بعد وأتأوه.

فرحتي باكتشاف الشاعر فيَّ، أبعدت عني هواجس الغيرة من "سالم"، كان بودي النهوض واقفا والصراخ بأعلى صوتي حاملا كل الورود بين يدي لأقدمها إلى جميع نزلاء الدار.. القادر منهم وغير القادر على فهم قيمتها ورائحتها.

تأملتني "سحر" جيدا، وتأملت فرحي في تحقيق ما يجعلني واثقا من نفسي ولو في بيتين من الشعر.

كادت تُفتح من عيني أبواب ونوافذ.. ثم أمسكت بيدي قائلة:

- يا إلهي ما أجمل ذلك.. ألهذا الحد كنتَ يا عزيزي تعيسا بحيث أن بضعة أسطر جلبت إليك الحياة؟

فكرتْ كثيرا بقبول الزواج من أبي اللعين، من أجل أخذي إلى داره لعرضي على أطباء آخرين.. أطباء نفسانيين وذوي تخصص في الإعاقات.. وألحت عليها الفكرة أكثر من ذي قبل في هذه الثواني بالذات وهي ترى عيني النضرتين.. لكنها تراجعت عن قرارها وفكرتها كونها ستدفن شبابها في قبر رجل بعمر أبيها، ولن يضيف ذلك لمرضي سوى زيادة الأدوية وهز الرأس بأن لا علاج لي أكثر من هذا سوى وضعي النفسي، وهذا بمقدورها تقديم المساعدة والعون فيه.

وقت مجيء الطبيب الزائر أسبوعيا إلى الدار عرضتْ المديرة عليه فكرة نقلي إلى مستشفى خاص بالعلاج النفسي، لكنه رفض ذلك مصرحا بأن له طبيب صديق وسيتصل بعيادته ليطلب منه المجيء إلى هنا.

ثم أوضح إليها:

- سيكون الأجر ثلاثة أضعاف.

أجابته "سحر" على الفور بالموافقة قبل أن تسمع رد المديرة.

وهو بدوره رد عليها: - على بركة الله، سأفعل غدا وأخبركم هاتفيا أين وصلت النتيجة.

الموت البطيء ربما يصبح خلودا للمعذبين والمهجورين من أسرهم، أو قد نكون بالنسبة إليهم مثل ورم خبيث لابد من استئصاله.

غنائي المؤلم كيف يترجم صوته ذنب أبي، كبريائي أمام عجزي المستديم.. هل تكفي أغنية واحدة لأدخل دار الأمان؟ الغرباء أحن من اقرب الناس إلي.. أنا من صلبهم ودمي دمهم ويضحون بسعادتي لأبقى غريبا.

حياتنا الثمينة من له الحق بإلغائها؟ أي ذنب اقترفنا لنُلغى هكذا؟

حياة "سحر" انتهت مرتين.. مرة بموت أمها وأبيها، ومرة حين اعتدى عليها الزمن بالعيش بين أفراد أسرة مفككة.

قد تبدو شاذة ومختلفة عن البنات من جيلها.. فالحزن والألم جعلاها تبدو أكبر من عمرها، ثم أنها لم تذق طعما للفرح، بل النظرة الدونية من قبل أسرة عاشت معها بعد فقدها الكبير... لهذا تعلقت بـ"الأحمدي" كما يحلو لها تسميتي.. صارت صديقة لي كما كانت "سلوى" صديقة "لحمامة" التي لم تر أمها، فقد ماتت وهي تلدها بعد زواجها من ابن عمها المفقود في الحرب، مما اضطرها الاشتغال في الدار عاملة، وتوفيت إثناء ولادة حمامة، فرعتها الدار.. والسيدة مريم أعطتها اسم حمامة.

كانت تراها مثل حمامة بريئة.. وهي فعلا هكذا رغم الإعاقة، فهي بريئة لا تعرف من الدنيا سوى الأكل والشرب والفرح، وبحضور "سالم "تحركت غريزة الأنثى فيها فحركت مشاعرها

الغائبة عنها سابقا.. تقودها تلك المشاعر ولا تعرف إلى أين.. تبحث عن "سالم" كالمجنونة حين لا تراه وتلهث وراءه وقت السير والتنزه في حديقة الدار.. ومثلها "سالم"، لم يعد راغبا نهائيا في الذهاب مع أمه نهاية الأسبوع... أصبحنا نحن أسرته "وحمامه" هي كل شيء بالنسبة إليه.. يفرح لرؤية أمه في موعد الزيارة ولا تشده مرافقتها.

ليست لديه ضغينة تجاه أي نزيل في الدار.. وله التصاق قوي بحمامة.

مما لفت انتباه أمه لذلك، وكانت تبدو عليها الفرحة كلما التقت به في نهاية الأسبوع... أجدها مسرورة بشكل غير طبيعي، وأوعز ذلك لقلب أم يفرح لفرح الابن.. فاجأتنا ذات يوم بطلب غريب وسألت "سحر" الاستفسار عن إمكانية تزويج "سالم من حمامة".

نزل الخبر كالصاعقة علي، إذ لم أتوقعه منها، ولكن وقتما سألتها "سحر" عن سبب تفكيرها بهذا الأمر استغربنا أيضا إصرارها:

- ولمَ لا.. فهو ابني الوحيد وأريد رؤية أحفادي.

- لكن يا سيدتي إنهما معاقان ولا يفقهان في أمر الزواج أي شيء، ثم سيلدان طفلا معاقا، هل ترغبين بمعاقين في دارك؟ أم ترغبين بولادة حيرة جديدة إليك؟ هذا غير منطقي وغير معقول. الطب سيرفض ذلك وكذلك الشرع والدين.

أجابتها وكلها ثقة:

- سوف أسال إمام المسجد عن هذا، ثم أنا أعلمهما كيفية الزواج وأعلمهما ماذا سيفعلان في ليلة الزفاف.

جنت "سحر" لكلامها ورغبتها.. كيف تفكر هذه المجنونة الأخرى.. يا لهول ما سمعت اليوم.

أسرعت خطوها إلى غرفة "سلوى" تخبرها عن جنون ما سمعت.. كان الوقت يقترب من الظهر "وسلوى" لم تجدها في غرفتها، بحثت عنها فوجدتها في المطعم مع "حمامة وسالم".. طلبت رؤيتها لأمر عاجل لوحدها، فاستجابت لطلبها.

جلستا في الحديقة منفردتين كي لا يراهما "سالم أو حمامة"، وأخبرتها عن رغبة أم سالم.. لم تهتم لما سمعت.. لكنها صمتت برهة ثم تابعت:

- ولمَ لا.

نهضت من مكانها وجلة:

- انظروا المجنونة الأخرى.. ماذا بك يا "سلوى"؟

أخذت بيدها متوجهة صوب الصالة.. كان التلفاز مفتوحا والصالة مليئة بأصناف الإعاقات وقالت لها:

- أنظري.. حين جلبتك إلى هنا كنت متوقعة أنني سأجدهما متلاصقين.. ماذا تفسرين ذلك؟

- هذه غريزة عارضة يا "سلوى".. ولا يعني أننا نصغي إليها وإلى رغبة أم مجنونة.

- لماذا تنعتينها بالمجنونة؟ هي أم و"سالم" وحيدها، وهذه رغبة كل أم.

- ثم أنها أخبرتني قبلك عن رغبتها بتزويج ابنها الوحيد.

هزت يدها استنكارا وغادرت المكان قادمة إلي:

- هل كتبت شيئا جديدا لنعلقه مع سابقه.. وأخبرتني بأنني أغلى نزيل عندها وأقربهم إلى قلبها.

تحرك رأسي باتجاهات مختلفة، إيجابا، وأشرت إلى قلبي.. فهمت أنني أضعها في قلبي.. قبلت خدي، وأخذت كفيَّ قربتهما إلى صدرها:

- أنت غال عندي.. وموضعك في قلبي كما موضعي في قلبك.

أشكرك جدا على محبتك، والآن قل لي:

- هل رسمت صورة جديدة؟ الم ترسم ماما سحر بعد؟

شعرت بالخجل من كلامها، خاصة أن كل رسوماتي وجه "حمامة "وأنا الذي وضعتها في منزلة الأم، وإلى الآن لم أرسم وجه أمي. أنما بعض محاولات.

مددتُ سبابتي إلى صدري معلنا أنها مرسومة هنا.

أجابتني مازحة:

- لا.. لا.. أريد رسما على الورق.

كانت تنوي الترويح عني وتبعدني عن سرقة النظرات من "حمامة" التي لا ترى ما أراه أو تحس به.

تجسدَ أمامي الفراق الأبدي، صار وحشا رهيبا، كل شيء تلبد بالغيوم والسماء أمطرت مطرا أصفر.. صرت كمن ينتظر نارا أخرى تلتهمه، يضع جمراتها في يده ويمضغها ليتصدى لأبوين هما الغول الوحشي الأكبر من الآخرين.

تشاجر العاشقان، ثلاث مرات، مرة حين عض "سالم" إصبع "حمامة"، ومرة حين بلل ثوبها بالماء، وأخرى وقت رمى العصير على ثوبها. شجارهما يدخل الفرح إلى صدري رغم غيرتي، فأبتسم بملء فمي فرحا وغيضا وغيرة.

بعيدا عن أي شاطئ أبحر بقارب صغير.. أطلب النجاة من

خشبه الهزيل، أتركه سابحا إلى بر أمان في الخيال، وكيف يسبح مثلي، بأية أطراف وأي جسد؟

رسمتُ حمامة وهي تركض خلف سالم وتترنح مثل بطة سمينة.. وخبأت الرسم تحت وسادتي.

مر اليوم بطيئا كما عادتها الأيام هنا، تلوك ثوانيها بتمهل، تسمع شهقات أضلعنا وتأمر دقائق ساعاتها بالتروي.

يا لوقاحة الأيام، كيف تمتهن ابتزازنا وتقرأ في وجوهنا عقارب ساعاتها الخرساء... فكرتُ في تأجيل فكرة رسم حمامة والبحث عن شخص آخر أقرب إلي، أتواصل معه وأشكو له خرسي ووحدتي وهمي.

طرأت لي أفكار شتى، لكن وجه "حمامة" يزاحم كل أفكاري.. وكلما بدأت بوضع معالم ما تمحوها ابتسامة "حمامة" البلهاء.. لا أدري لماذا تتحكم هذه الابتسامة وتستفحل على محاولاتي.. هي في اللون الأسود والأبيض فقط.. يا لعظمة هذين اللونين.

أقترب فيهما من نفسي فيتحول اقترابي إلى عدم.. أين وجه أمي، لماذا لا يسيطر على كل الوجوه هنا؟ لماذا لا يحل علي ضيفا ولو يوما واحدا، سأحتفظ به وأجعله كل رسوماتي.

لماذا يتركني مثل كلب سائب يبحث عن يد بشرية لتحميه من ضآلته؟

كثيرا ما تخيلتها رشيقة وطيبة القلب، وما إن أشرع في رسمها بهذه الهيأة أمحوها رأسا.. وأرسم شكل خنزير، ثم لماذا نكره الخنازير.. أقلها هي تحمي صغارها بين أضلعها من البرد ومن أزيز الرياح.

أبي المانح حياته له فقط، لم يمر في ذهني يوما أضع له

شكلا على ورقي، أو أتخيله مثلا على شكل علامة استفهام. حتى هذه العلامة لها قيمة على الأقل تنتظر جوابا ما.. أما أبي فلا ينتظر غير جواب نقوده، كرشه وغوانيه.

أمي وأبي.. هذان المخلوقان البائسان هل شعرا يوما بالخوف العظيم من ظلمة الوحدة؟

هل مررتُ ببال أمي ثانية؟ أتراها استذكرت لحظة ولادتي؟

أم تشيح بوجهها عن تلك الذكرى كلما تصورتها وكرهت النظرة الأولى لشكلي المشوه؟

لم أحقد عليهما يوما، لأنهما لا يعنيان لي شيئا وأقشطهما عن أوراقي كما تُقشط الأزبال العالقة في الطرق.

إذا.. عليَّ البحث عن شيء جديد أرسمه وأثبت لهما بأنني سأكون بدونهما وأضع لنفسي مسارها الصحيح.

الرحلة الثامنة

شاردٌ إلى قلبي، مثل جواد مجنَّح
أعزف الناي، لأعثر على الساعة الأولى

أية أيام أنتظر، أي يوم يحمل بيديه زهرة ويقول لي جئتك راكضا لأحيا بك، أعلم أنه لن يأتي، أدرك ذلك جيدا لأنني كسير الجناحين، فكيف أطير بهما في سماء أخرى؟.. هل كل الأقمار الكونية باهتة؟ لماذا يصمت كل ما في الوجود؟ الكواكب خرساء والشجر صامت الليلة، لماذا لا يستحيل الأسئلة إلى أجوبة؟ دموعي، ألها أم تنتظرها؟

أخرجني "أحمد" من صمتي وأفكاري الموجعة:

- لا يُفترض بنا النهوض باكرا يا "عنقود" أليس كذلك؟

- نعم.. الليلة نكمل الرحلة الثامنة ونترك الباقي ليوم غد لابد من إنهائها في ليلة واحدة لأقرر ماذا سأفعل بعدها.

التفت إلي بقوة من عضه عقرب:

- ماذا ستفعل بالضبط؟ لماذا تتخيل نفسك قادرا على الحسم إلى هذا الحد؟

كم أكره هوجك.. في هذه اللحظة بالذات زاد كرهي إليك..

أنت متسلط لا تختلف عن الآخرين في روايتك.. أمك وأبوك زبالة البشر، وأنت زبالة المعاقين.

لم استطع الرد عليه بطلاقة لسانه.. من حقه يدعوني زبالة المعاقين، بدليل لسانه أكثر حرية من لساني. وصوته أجمل وأقوى وأعلى من صوتي الضعيف الذي بالكاد يخرج من أحباله، أكرهه عقيما واهنا.

استنفدت كل لغة الإشارات والإيماءات والحركات.. فردت أصابعي على طولها، مددت شفتي السفلي إلى أقصاها والعليا ضممتها بقوة، عضضت بسني على السفلى وبكل قوتي حتى أدميتها.. لم أصل إلى ذلك اللعين ابن الكلب" الصوت الحر " الذي يخرج حرا قادرا على السؤال والجواب.

أشرت إليه أن يجلب لي قدح ماء فرفض ونفر:

- ألستَ الحاسم في الأمور؟ قم واشرب ولا تعتمد على الآخرين.. هيا أيها الحاسم القذر.. أكرهك.

بكيتُ بصمت، ثم أجهشت بصوت متقطع.. لماذا يعاقبني من أحببته؟ "حمامة" اختارت غيري. الخنزيران أمي وأبي.. "وأحمد.. أحمد" بالذات لماذا يعاقبني، فقد أحببت كل شيء فيه.. حتى أنني تغاضيت عن تقليده لي ككاتب وهو يبتسم للمهنئين. وتغاضيت أكثر لشرائه نفس ملابسي.. لونها نوعية القماش.. ما خلا المقاس طبعا وترك مثلي عنقه حرا بدون رباط. يقلدني في أموري الدقيقة والمهمة ويكرهني حين ألجأ إليه الآن لشربة ماء.

أين "سحر".. ليتها تدخل وترويني.. ليس أحن منها في كوني الزبالة كما أسماه "أحمد".

- "سحر" لا تنهرني مثلك يا "أحمد"

- أجابني والثقة تملأ فمه:

- نادها إذا، وأسمعها صوتك كي تأتيك بقدح ماء.. أنت قادر فقط على الورق.

- لا تأخذك الشماتة وتحنن قليلا، ستدخل على حين غرة لتطمئن علي.. هي ليست مثلك قاسية القلب.

- هي تتسامر مع دكتور "محمود "الآن.. ولن تكون كما السابق.. جاء من يشغلها عنك يا معتوه انتبه لنفسك واعرف مقامك وحجمك.

أدرت له ظهري ولم أفه بكلمة واحدة... أين اختفى الإنسان الحر الذي كونته بمخيلتي وبين أوراقي؟ لماذا أترك "أحمد" يسيطر علي؟

ينبغي أن أطرح ذاتي عليه وبقوة، لن أدعه ينتصر هذا اللعين المغرور.. بماذا يختلف عني؟

باستقامة عموده؟؟ بشكله ووسامته؟ بطلاقة لسانه؟؟

طز فيها كلها.. هو عقيم لا يستطيع كتابة كلمة واحدة أو يمسك بقلم الفحم يثبت للناس أن السواد له وجود في حياتنا.. ووجوده يشكل هيأة نقررها نحن على البياض وتقررها أناملنا.

يجب تحفيز نفسي على نداء المسؤولية.. فغدا سيأتي الزوار إلى المعرض وبيدهم نسخ الرواية، وسيطلبون توقيعي عليها.. وما علي الآن إلا تركه يهذي بحقده لأنه يعرف جيدا أنني الأقوى منه وسأمحوه قريبا.

خوفه من المحو يجعله ثائرا غاضبا هكذا، فلأكن بما صرته وسأتركه يتخيل محطة محوه كيف ستكون.. بعجلات قطار تسحقه مثلا.. بسيارة عابرة مسرعة.. أو بممحاة أقرر أنا شكلها وحجمها... أو بجعله شبحا ينمحي من حياتي.

حين سمع همهمتي استدار مشفقا علي، دخل المطبخ وأحضر لي قدح ماء، لكنني رفضت مساعدة جسدي على النهوض وارتأيت العطش على شفقة مصطنعة.

لم أعتد الحقد في حياتي، حتى أمي وأبي رغم جحودهما كنت أشفق عليها مما هما فيه من كفر وعقاب الآخرة.. أما "أحمد" فسأتركه حتى تحين لحظته.

قلبتُ صفحات الرواية على الرحلة الثامنة وبإصبعي الصغير أشرت:- اقرأ.

*

الليل أضيق من ثقب الإبرة والنهار يمضغ لحظاتنا رغم إسعادنا.. نبحث عن معنى الفرح في الأفئدة الصامتة وندون موسيقى عيوننا التعسة.. أصلّي من هنا واستغفر ربي، ألوذ به ليرحم عباده العاجزين.

باتت "سحر" تتهرب من أم "سالم" وتحاذر يوم السبت خشية إلحاحها على تزويج ابنها ورغبتها برؤية حفيد لها.. كانت تصر على ذلك وتحث "سلوى" على إقناعها في الأمر كي تخوضا هذه التجربة وتوصلاها إلى هدفها.

أما "سالم وحمامة" فكل همهما اللعب مع بعضهما، والتقارب باليد أو بالصمت وجها لوجه.. كأنهما يعبّران بصمتها عن شيء بداخلهما ينوي الظهور ويريدان اكتشافه أو الوصول إليه.. ويبحثان عمن يهديهما إلى ذلك أو يقودهما إلى سره.

بات أمر "سالم وحمامة" مكشوفا للجميع.. بعضهم يقدر لهما الإنصات إلى الإنسان فيهما وأحقيتهما في أن يكونا جزءا من هذا العالم.

لكن "سحر" مترددة لسبب بسيط وهو نهاية هذه العلاقة؟ وهل

تتركهما هكذا تدفعهما الغريزة ولا يعلمان سببا لذلك؟

غضبتْ "سحر" من أم "سالم" بنعتها غير مبالية بابنها ولا تريد له الخير خاصة ما بذلته" سلوى" فاتحتها بشكل جاد بأمر زواج "سالم "وبإلحاح وإصرار.. كظمت غيظها وعذرت أمومتها المندفعة وجهلها بنتائج ما تضمره لابنها متوقعه أن يصبح أبا، أو تتبنى هي كل ما ينتج عن زواج غير طبيعي في ظروف غير عادية.

بتوسل أم غير عارفة عاقبة رغبتها متوسلة الموافقة، أوضحت لها "سحر":

- عزيزتي أنا بودي ذلك ومن حقك القيام بكل ما يخص الزواج دون الرجوع إلي والتوسل لموافقتي.

جلستْ أرضا بينما "سحر" على المسطبة في الحديقة تتابع إنصاتي لحديثهما ومتابعتي بجدية لما يدور بينهما، تهمس بصوت خفوت وتطلب من أم" سالم " ذلك وهي تشد على يدها راجية تعاونها:

- لكنك ستكونين أختا لي، فأنا لا أهل لي ولا معارف غير صديقتي التي قادتني إليكم، أخبرتها عن رغبتي فباركت لي.

أريد مساعدتك في الاتصال بالطبيب أو جهات دينية لأتأكد من صحة "سالم" ومعرفة فيما إذا الزواج يقدم له الخير وليس العكس.. كما لا أظن الدين والشرع سيرفضان، فمن حق أي إنسان العيش والتنعم بالحياة.

تلعثم الكلام في فم سحر:

- نعم أم "سالم".. من حق أي إنسان إذا كان سويا مدركا لخطورة الحياة الجديدة ومهامها، الزواج ليس الإنجاب وإشباع الرغبة، وأنت غير دائمة لهما.. فكيف سيعيشان بعد ذلك ويعتمدان على أنفسهما أو الاعتناء بالطفل الذي ترغبين به؟

شدت قبضة كفيها إلى بعضهما بقوة وفركت راحتيها:

- "سلوى" وافقت على مساعدتي والوقوف بصفي.. ووعدتني ستخبر المديرة بذلك.

نهضت "سحر"متذمرة:

- لتتكفل "سلوى" بالأمر إذاً، فأنا مرهقة اليوم ربما في الأسبوع القادم سنتحدث بالتفاصيل.

تركتها وأخذتني لشجرتي المفضلة، جلسنا صامتيَن إذ لم تفه بأية كلمة، كانت تفكر بكيفية تنفيذ الزواج وعقلها مشوش علي، وكيف سيكون وقع الحدث، رغم علمها بحبهما لكنها غير متوقعة رغبة أم مجنونة.

أيشعر أحد بجسدي ورغبتي الجنسية وقلبي المغرم؟

ارى عجزي في التعبير عن أفكاري، فأوصلها إليهم برسوماتي وإشاراتي الشعرية، وكتابتي بعض الجمل الراقية كرسالة إلى الحياة، وإلى ما يعارضني فيها عنوة.

وعدتها "سحر" بما رغبت فيه قاصدة إسكاتها.

فورها أجابت بأنها سألت إمام المسجد في قريتها، وقال هذا الأمر راجع لجهات أعلى منه سلطة دينية وأكثر معرفة، وعلى ما يعتقد أن لا مانع من ذلك شرط أن يكون أحد الزوجين أوكلاهما يعيان ولو قليلا عن الأسرة والزواج.. وهناك من يرعاهما في أسرتهم ويتكفل بذلك بشكل دائم.

فكرت "سلوى" بمعضلة الأمر وما سيؤول إليه..، رغم ذلك احترمت قلب أم غير متعلمة وتجهل عاقبة الأمور، تتكلم بدافع الأمومة فقط:

- والله سيدتي دعيني أسال وأخبرك.. فأنت مقبلة على أمر خطير ولابد أن تتحملي نتائجه، ف "سالم" لا أظنه يعرف حتى

طريقة الزواج وكيف يختلي" بحمامة" وماذا سيفعل ليلتها.

نطت من مكانها:

- سأعلمه أنا.. أنا أدخل معهما غرفتهما وأعلمه خطوة بخطوة.

هزت يدها ضاحكة ومستغربة ومشفقة على أم "سالم" وعليهم جميعا.

شاهدتها بعد ذلك تجلس مع "سلوى"، وأدركت أنها تحفزها كي تجعلها تقف في صفها وتقوم بمهمتها والاستعداد لكل التفاصيل.. وإقناع المديرة.

ودعتْ "سلوى وسالم" رغم توسلها إليه ليمتثل لرغبتها ويذهب معها إلى دارهم ولو ليوم، لكنه رفض وفتح ساقيه مباعدا بين قدميه ضاغطا على الأرض يستنجد بها وعينه على "حمامة "وعلى "سلوى".

حالتي الصحية تزداد سوءا يوما بعد يوم، وانتظاري للطبيب النفسي يزيد من ريبة "سحر" علي... بعد اتصالها" بسليم " الدكتور المناوب في المستشفى برق نور أمل أمامها، خاصة أنه أخبرها عن اتصاله بصديقه الدكتور "محمود" ووعده سيرتب يوما خاصا لزيارة الدار.

قالت له متلهفة:

- متى سيأتي لطفا؟

بهدوئه المعهود رد عليها:

- وعدني قريبا، وهو حين يعد يفي، لا تقلقي فالمريض بخير وربما يمر باضطرابات المراهقة، صدقيني حالته بسيطة وإصابته بالإسهال مرارا لا تقلق أبدا.

لا شك أن الأمور بدأت تتعقد، وكلما مرضتُ شعرتْ

"سحر" بدورها يتضاعف لرعايتي وتقديم العون وتخفيف الصدمة القادمة إلي.

حسنا يا "سحر" لماذا القلق؟ قالت لذاتها ذلك وتوجهت إلى غرفة المديرة لتخبرها، إذ لا مجال لتأخير أمر زواج "سالم من حمامة"، ربما ستتصرف أمه بغباء وتطلب استرجاعه إلى البيت..، ساعتها ستتفاقم المشكلة ولن تستطيع إنقاذ "سالم" من جهل أمه وغبائها.

مرة أخرى قالت لذاتها، حسنا، ودخلت غرفة السيدة فضيلة، لأول مرة ترى أوراقا مبعثرة على طاولتها، فمن عادتها الترتيب والتدقيق في كل شيء، إذ لابد من إرجاع كل شيء إلى مكانه وإلا استشاطت غيضا.

حين شاهدتها طلبت منها الجلوس ريثما تنتهي من كتابة رسالة تريد توجيهها إلى المستشفى المركزي في المدينة، كي يسرعوا بتخصيص طبيب للدار براتب مغري، لا يكفي زيارة الطبيب المناوب مرة في الأسبوع.. كذلك تضيف فقرة في الرسالة وهي التأكيد على إحضار طبيب نفسي.. ثم أضافت:

- والد "عنقود" يجزل العطاء إلينا.. صحيح يستجدي حبك ولفت انتباهك إليه، لكنه أيضا بدافع الاهتمام بولده يتبرع للدار بأكثر من مرتين في السنة، وأنا بصراحة أشكره على ذلك جدا فمثله قليل هذه الأيام.

لم يعجبها قولها " مثله قليل هذه الأيام" لأن من وجهة نظرها أنه مقصر بحقي، والفلوس لا تهبني الحنان وحضن الأب.

ابتلعت الصمت وهزت رأسها إيجابا.. ريثما تنتهي من رسالتها ستخبرها عن دكتور "محمود" القادم إلينا في ثمة ساعة بواسطة د "سليم"، كما تخبرها عن موضوع الزواج.. وكلها علم

بدهشتها ساعة سماع الخبر.. ستنزع النظارة الطبية وتمسح دموعها من أثر الضحك فهي من النوع الذي يبكي ضحكا.

هي لحظة سرقتها من الزمن تتطلع فيها بأنحاء غرفة المديرة المكونة من أرائك من القطيفة الحمراء والسجاد البيج المشجر بورود صغيرة حمر بحواف ممزوجة بورد أصغر من اللونين الأحمر والبيج... الستائر بيج أيضا مزينة بخيوط تنزل قللا على الستارة وباللون الأحمر الغامق.

من عادة السيدة "مريم" ترتيب غرفة المديرة جيدا خوفا من غضب السيدة فضيلة، فهي على علم بدقتها في الترتيب والتنظيف والبحث يوميا عن الغبار، وتعرف السيدة "مريم" عن رغبتها بإزالته يوميا.. لكن هذه المرة أثارت استغرابها طاولتها وعيناها الموحيتان بالقلق.

ما إن انتهت من كتابة الرسالة حتى طلبت لها فنجان قهوة... لم تحضره السيدة "مريم" بل شابة يافعة لم ترها من قبل.. زمت شفتها استغرابا، استدركت استغرابها وبادرت المديرة بالقول:

- "مريم" تركت الدار وبناء على طلبها وافقت، رغم حاجتنا الماسة إليها وحاجة حمامة المتعلقة بها، لأنها ولدت على يديها.. وفهمت في إصرارها نية الزواج.. لذا أحضرت هذه الفتاة عوضا عنها.

- اختصرت "سحر" تعجبها بكلمة واحدة:

- الزواج؟

أجابت المديرة:- ولمَ لا من حقها ذلك.

ضحكت:- غريب أمر الناس، الكل يفكر بالزواج إلا أنا سيدة "فضيلة"، تخيلي جئت أخبرك عن رغبة أم "سالم" بتزويج "سالم من حمامة".

نهضت كأنها فرس متوثبة: - ماذا تقولين؟

- نعم أقول ما سمعتِ سيدتي، وأم" سالم" تتوسل بي كل أسبوع كي أصارحك وتطلب مني القيام بما يترتب على ذلك، من التأكيد عن وضعهما الصحي والنفسي والدين ووو. . ، إلى آخر الأمور.

تخيلي هي على استعداد لتربيتهما معا في بيتها، وتدخل معهما غرفتهما ليلة الزواج تعلمها كيف يقومان بدورهما كزوجين. . هل رأيتِ جنونا أكثر من هذا؟

- فعلا يا "سحر". . انه الجنون بعينه. . الم تفكر بنتيجة هذا الزواج ؟

- والله أخبرتها لكنها مصرة تريد رؤية حفيدها قبل أن تموت.

جلست قبالتها واحتست قليلا من القهوة:

- هل تريد حفيدا معاقا أيضا؟؟ صدقا جُنت هذه المرأة.

- هذا ما حصل سيدة" فضيلة" وبيدك الحل ماذا أرد عليها؟

لم تعط الموضوع أهمية:

- أتركي الأمر المهزلة هذا وفكري معي ماذا أعمل. . فالدار متطلباتها كثيرة. . صحيح أنها ملكي ولا ندفع إيجارا، لكن هناك مصروفات كثيرة. . الرواتب والماء والكهرباء والعلاج كل هذه النفقات أدفعها أنا وبصراحة لا مورد لي غير رصيد تركه لي زوجي، من فوائده أعيش. . وهذا لا يفي بالغرض، فهل لديك أية فكرة؟

أول مرة تطرح مثل هذه الأمور أمام أي أحد، لذا " تجرأتْ "سحر"على طرح سؤال:

- ألا يدفع أهل المرضى ثمن عنايتنا بأولادهم؟

- نعم يدفعون.. بعضهم ضعيف الحال ويستنجد بي فاضطر قبول ابنه أو ابنته على نفقتي الخاصة مساعدة لهم، أغلبهم لا يملكون قوت يومهم... فلاحون، عمال.. كسبة بسطاء تقع على عاتقهم إعالة أسرهم الكبيرة، فهل الأب يطعمهم أم يدفع لمعوق؟ خاصة أن سمعة الدار انتشرت بينهم ويتمنون مساعدة أولادهم ورؤيتهم بأفضل حال.

- ألا يقدمون عملا للدار مثلا (ساعة حاجة)؟

- نعم، فالفلاح يأتي مرتين كل أسبوع لتشذيب الأشجار والعناية بالحديقة.. هو أبو حسن النزيل المشلول إثر إصابته بحمى ألأطفال.

ومثله النجار ووو.. هذا غير كاف يا "سحر" وأفكر بما يقينا العوز فماذا تقترحين؟

قالت لها الأمر أمركِ، لكن طرأت على بالها فكرة الاستفادة من أهل المرضى، بعمل معرض من أعمالهم اليدوية وبيعها في عمل سوق خيري ريعه للدار، أو نصف الريع لهم والنصف الثاني للدار.

فرحت لفكرتها:

- فعلا.. هذه فكرة رائعة.. منها نخفف عنهم البطالة وسيقدمون شيئا مقابل رعاية أولادهم وزيادة.. بحقكِ مَن سيتولى هذه المهمة؟

- سهلة سيدتي.. نحن جميعا نقوم بها.. في يوم السبت ضعي إعلانا

عن حضور كل الأسر لأمر هام ومفيد.. وحددي يوم الاجتماع مع الأسر وساعتها قدمي مقترحنا هذا.

سنكتشف فيهم أشياء كثيرة لو كرسنا وقتا كافيا.. لنجربهم

بأعمالهم اليدوية، النساء يشتغلن بعمل السلال والحصر، ونعلمهن صناعة بعض الحلويات وتعليبها لبيعها في المعرض الذي سنقيمه.. سندعو محافظ المدينة وذوي الشأن في القرى المجاورة.

تنفست المديرة عميقا: - كان الله في عوننا، أية مسؤولية سنتحمل الأولاد أم أهلهم!

قالت لها وكلها رغبة في القيام بذلك:

- لأني أود أن أشغل كل يومي بنهاره وليله كي لا أتذكر من الماضي شيئا، وكي أعوض خسراني بحياة جديدة.

التطوع عمل جميل سيدتي ومن يفهم لغته يعرف قيمة عمله.

لا عليك سيدتي.. سنجد الوقت مادمنا نقوم بعمل إنساني ونحن لها.

فرحتْ وصافحتها مؤيدة رأيها بالموافقة، ثم طبعت قُبلة على جبينها.

خرجت تتلمس قبلتها.. فمنذ خروجها من بيت أهلها لم تشعر بحنان قبلة.. أو بالأحرى منذ أن مات أبوها لم تجد الحياة مبررا لتهبها من يقبِّلها على جبينها ويحتضن أساها.

ونحن على مائدة الطعام أخبرت "سلوى" باقتراح المديرة، وبحيرتها من الوضع المادي، فاستقبلت الخبر برحابة صدر، لأنها تعرفها جيدا وتعرف مدى إنسانيتها واستعدادها لتقديم المساعدة لأي كان، فكيف إذا كانت الفكرة مشروعا يخدم الدار ونزلائها.

جلستا تخططان ماذا ستعملان، وكيف تقودان كل الأسر والموظفات والعاملات في الدار، ووضعتا التفاصيل الدقيقة كخطة أولية للعمل ابتداء من الإعلان عن موعد اجتماع الأسر هنا، إلى أوليات تقسيم النساء كل حسب مقدرتها ومهنتها وجدارتها وكذلك الرجال، على أن يأتوا مرتين في الأسبوع إلى حصة الدرس،

والتنفيذ في مساء يوم الاثنين والخميس.. ولمدة ساعتين ليأخذوا المشورة ويقدموا ما قاموا به في باقي الأيام.

قالت "سحر":

- هي فرصة أيضا "لعنقود" ليخرج من وضعه النفسي ويقدم رسوماته للمعرض ونشجعه.. نجلب له مدرسا بالرسم في اليومين المقررين للأهالي ومدرس لغة عربية، أو نعلن عن استعداد مدرس الرسم في المدرسة البعيدة عن الدار قليلا، ليهبنا بعضا من وقته بعد الدوام تبرعا.. سأقوم أنا بذلك بعد الاستئذان من المديرة طبعا، وأظنها ستوافق... وهي فرصة "لسالم" نعلمه بعض المهارات اليدوية "وحمامة" ولو بأبسط المهن وأسهلها.

وسنعلن عن مسابقة لأهم عمل من كل صنف ونقدم للفائزين جوائز تشجيعية.

في أول سبت من قراراهما وضعتا لافته فيها موعد اجتماع الأسر لمن يستطيع القراءة، والشابة "نورة" العاملة في المطبخ واجبها إخبار أية أسرة تدخل الدار عن موعد الاجتماع.

كان ذلك يوم الاثنين من الأسبوع ذاته، حيث توافدت جميع الأسر عدا والدي لم يحضر الاجتماع.. ليس غريبا عليه ذلك... أبدوا جميعا استعدادهم ورغبتهم في تحقيق هذا اليوم المنتظر وبقلوب فرحة ودعونا جميعا، حتى أم "سالم"، قدمت موهبتها في حياكة أغطية الرأس للرجال وخياطة ملابس للأطفال خدمة للمشروع.. وأشارت بيدها إلى "سالم وحمامة" مؤكدة "لسحر" على الاستمرار بمشروع الزواج المهم بالنسبة لقلب أم لا تملك غير ولد منغولي.

أشارتْ إليها بنعم مجاملة، لكن في سرها رافضة رفضا قاطعا.. فامتلأ وجهها فرحا وخرجت توزع ابتساماتها على الجميع وقلبها ينبض سرورا وبهجة.

في داخلي تكمن أشياء مبهمة.. ليتني أستطيع الإفصاح عنها كي لا أطوي جسدي النحيل على عظامه.. رغم غموضي إلا أنني واضح بالنسبة "لسحر".

أحبت روحي التي تجاهد لتبقى كما هي وتتقبل ما خلقها الله في جسد يتناقص يوما بعد يوم، كلما ازداد عشقي تأججا وخنقني صمتي واستفحلت غيرتي على الجانب الإنساني في.

لأجلي كانت تبتعد عن "سالم" قليلا، فأنا أكابد صراعي بين الجسد المحروم من ملذات الحياة وبين روحي النقية التي جعلت كل نزلاء الدار تتعلق بي وتحبني.

تحب الموهوب الذي تتفكك عقارب الساعات لأجله وترجع لتخلق دقائقها من جديد تضبطها على إيقاعه المشع.

متابعتها دقيقة لبعض تصرفاتي، خاصة وقتما أدخل في عزلة مع نفسي وأصمت لأي سؤال تطرحه علي.

أصمت أحيانا من أجل لفت الانتباه إلي، ومن أجل نفسي لأحاورها.

كثيرا ما فقدت تصبرها،.. وتلافت انفعالها وتململها. لأن دورها الوظيفي والإنساني يحتمان عليها التجلد الصبر.

وكثيرا ما أحاول إيصال ما يدور في خاطري إليها بواسطة الضغط على يدها.. حتى باتت تكتشف دفئي الإنساني وتتعرف علي عن قرب.

لهذا أصبحت معاناتي جزءا منها.. حتى وأنا أصارع من أجل عدم إظهار غيرتي من "سالم" أصبح قريبا منها وأرسل إشعاعات عيني الضيقتين إلى قلبها، فتدرك مدى عمق ألمي وعدم قدرتي على أن أكون زوجا سوي الجسد والقلب.. أو أتمنى ذلك الشخص الذي أرجو أن أصيره.

رغم سكينة صمتي أجد في رحلتي إلى الحياة رجلا يكابد ليضيء ابتسامة هادئة وإن كان مغمض العينين.. فما أروع عزلتي ورحلتي هذه، وما أصعبها علي وعليها أيضا.

اتصل هاتفيا الدكتور "سليم" ليخبرها عن موعد قدوم الطبيب النفسي بعد الغد الساعة العاشرة صباحا، سيأتي ويبيت في داره كي يتسنى له السفر ظهرا بعد الكشف على عنقود.

لم تسعها الأرض من الفرحة.. رغم فرحتها انطلقت صرخة مزقت قلبها. سمعتُ حديثهما فأنا قربها وأنصت جيدا لكلماتها.. كنت رافضا قدوم هذا الطبيب كوني على قناعة تامة بمرضي ولا حاجة إلى طبيب نفسي.. أدركُ علتي العشق.

قضيت اليوم كله ممددا في سريري، لا رغبة لي بنزهة أو فرحة.. كنت أتنفس بعمق وألم وأزفر ببطء.. تباعدت جفوني عن بعضها وانزلقت دمعة على خدي وهي تقودني بالكرسي المتحرك إلى غرفة الطعام.. مسحتها بهدوء ولم تتفوه بكلمة لئلا تثير كبريائي.

كم من أمل وهبته إلي، وكم من إخفاق أصابني ساعة رؤية التصاق "سالم بحمامة".

ونحن جالسين لاحظت قلادة من الفضة تتدلى من رقبة "حمامة". كانت فرحة بها جدا، وتفركها بين الفينة والأخرى وتريها إلى "سلوى وسالم".. وحين سألت "سلوى" عن مصدرها أجابت:

- أنها هدية أم "سالم "لها، فهي تحاول جذبها وشدها إليها في كل زيارة بجلب الحلوى والعطر، لعلمها بحب "حمامة" له رغم أنه من العطر الرخيص، لكنه يفرح "حمامة" وتضع الكثير منه طول اليوم.. وفي الزيارة الأخيرة أهدتها هذه السلسلة. حتى أنها

طلبت من "سالم" ربط حلقة السلسلة على رقبة "حمامة" وعلمته كيف يفعل ذلك.

رغبت بمعرفة كيفية تصرف "سالم" مستفسرة:

- كان فرحا جدا.. فتح شدقيه على آخرهما وتصرف كطفل سقطت منه حاجة عزيزة عليه وتوصل إليها في رقبة "حمامة".

- وماذا فعلت حمامة؟

- كانت في غاية السرور.. مصت إبهامها وهزت جذع جسدها ذهابا وإيابا، ثم كشرت عن أنياب متلاصقة فوق بعضها، حتى كادت تلعق السلسلة بلسانها الطويل الممتد إلى حنكها معبرة عن فرح مباغت دخل قلبها..همهمت.. (هم.. هي.. هم) وتطلعت إلى "سالم".

حاولت جاهدة تغيير الموضوع والحديث بصوت عال عن أمور الاحتفالية السنوية والسوق الخيري والمهرجان الذي سيصاحبه ودوري في الرسم وتوقعاتها بحصولي على الجائزة الأولى.

لم أهتم لكلامها، عضضتُ يدها ولأول مرة أفعلها، وأشرت برأسي صوب العنبر.. امتثلت لرغبتي وقرأت ما في وجهي.. فقد ذوت آمالي ومن ثم سأتحمل المزيد من الصمت المر.

رجعت بي إلى سريري وبقيت الوقت كله إلى جانبي وأنا منصت إلى روحي أحادثها ولم أضع يدي في يدها.

كنت غاضبا منها.. كيف تستجيب بهذه السهولة لرغبتهم.. لماذا لم تمنع هذا التهور؟؟ لماذا يا ربي يقف العالم كله ضدي؟

التفت إلها بطريقة أفزعتها، فقد بدا شكلي كأنني أحتضر وأقاوم لحظتي هذه.. أشرت بإشارات منفعلة مما اضطرها لمناداة المعلمة "مناهل" لتشرح لها انفعالاتي المتلاطمة مع بعضها مثل أمواج بحر هائج.

حين حضرت وجلست قربي تهدئ من روعي، استمرت ثورتي وغيضي.. فتوسلتْ "سحر" أن تخبرها ما أقول.. أجابت:

- إنه يحدث نفسه، يعيب عليها الحب ويقول لذاته إنك محض إنسان ناقص، إنسان معاق بنصف أو ربع إنسان، فلا ترجو قلبا يتحرك وينبض بداخلك.. أنت عورة وعرة على الحياة.. يترفق بك الآخرون ويشفقون عليك... أنت لا شيء، كائن من الصعب أن يتحول إلى إنسان.

حاولت "سحر" تقبيل يدي فأشحت بوجهي عنها والتصقت بجسدي كعادتي، كلما حاولت استنهاض همتي..

أخبرتني عن غيظها مني..، فانتفضتُ وخبأتُ رأسي في صدرها باكيا بصوت لا يخرج من صدري بسهولة، كان نحيبا متقطعا.

باتت إلى الصباح قربي، وقت صحت وجدت نفسها غفت إلى جانبي في السرير وهي بهيئة جلوس.

صحت متعبة جدا من انحناء ظهرها، رغم محبتها لي راحت تندب حظها:

- يا لك من حظ تعس، حتى في عملي لا تأتيني إلا بالتعب والقهر.

آلام كثيرة تدخل حياتنا ولا تخلف غير مآسيها المعشوشبة في الجروح.. مرت علي أنا بالذات لتذبل أوراق عمري.. لم يتدل هذا العنقود الرقيق من أغصانه.. كل شيء يحتمل إلا الحب من طرف واحد.

فتحت الستارة ثم النافذة لتدخل نور الشمس إلى العنبر بمن فيه.

أجساد يترحم عليها من يقدم لها ابتسامة رضا فترد عليه بابتسامة مثلها.. بلا هوية مجرد فم مفتوح وعويل مجروح.

أخذتني إلى الحمام، نظفت أسناني وغيرت الحفاظ الممتلئ بولا حتى كاد يسيل على الأرض. لم أعرف ما أصابني.. هل البول حالتي الجديدة بدل الإسهال؟

غريب أمري، فكل مرة أعبر عن ألمي بطريقة مختلفة.. جل ما أخشاه تلاشي الكائن الرقيق بداخلي.

أرجعتني إلى العنبر لتغير ملابسي كلها، بعدها وضعتني في الكرسي المتحرك كي نتهيأ إلى وجبة الإفطار، استأذنت مني لحظات لتغير ملابسها.. حين عودتها وجدتْ أوراقا ممزقة ومبعثرة في العنبر.. التقطتها، كانت الصور التي رسمتها "لحمامة".

اغتاظت من تصرفي ورغبت بمعاقبتي ولو بالكلام، لكنها ارتأت الصمت على جرح مشاعري... كظمت غيظها وخرجت.. تركتني وحدي لعلي أشعر بالندم من فعلتي.

دخلت موظفة النظافة كنست كل شيء وكذلك باقي المشرفات على المرضى، كل من مارست دورها تجاه مريض.

إنه الصباح الذي ننتظر فيه مجيء الطبيب النفسي كما وعدنا د "سليم" وفعلا حضر في الوقت المحدد بالضبط.. طلبت المديرة حضور "سحر" إلى غرفتها واصطحابه إلى العنبر للكشف عنِّي.

لم أرد ولو بإشارة عن أي سؤال طرحه علي الطبيب.. كانت عيني ممتلئة بظلمة خالية من أي حلم أو رغبة في الحياة.. اعتدل الطبيب جالسا قربي مازحا معي كرجل لرجل.

- أيها الرجل الجميل يبدو أنك مغرم، وهذه حالات المغرمين هل أنا محق؟

رد عليه الصمت ولم أرد عليه.. طلبتْ من الطبيب الاختلاء

به، فخرجا يتمشيان في الحديقة.. وأخبرته بما يؤلم عنقودها الأحمدي ويجعله مريضا إلى حد الإسهال.

اقترح عليها نقلي إلى مكان آخر بعيد عن الجو المسبب لألمي، وحين قالت له لا مكان لنا غير هذا، قال سأنقله معي إلى عيادتي الخاصة وأنا سأرعاه شرط أن تأتي أنت معه، فهو كما تقولين يثق بك ويحبك كثيرا ولا يرى غيرك.

صمتت، ثم واصلت:

- لا استطيع الرد عليك فالواجب يحتم علينا انتظار والده نستأذنه، ونقله إلى المدينة يحتاج إلى مصاريف أخرى.. المكان الدواء وكل شيء.. هنا الوضع مختلف فالدار مهيأة للرعاية الكاملة.

وصف لي مهدئا آخذه ثلاث حبات في اليوم ريثما تتصل "سحر" بوالدي تخبره عن نقلي إلى المدينة إن كان يعنينه أمري فعلا.

خرجت معه وأوصلها إلى الصيدلية الوحيدة في القرية.. اشترت الدواء وأعادها الطبيب إلى الدار مشكورا..

أخبرته وهما في الطريق عن "سالم وحمامة" وعني، ولماذا تدعوني بعنقود الأحمدي.. وتحدثا عن عيادته ومرضاه، وعن وسبب ضياع أنوثتها في هذه الدار.

ودعته وأجاب على وداعها بهمسة لطيفة:

- أنتظر هاتفك سيدتي الجميلة.

لماذا تحكي لي "سحر" أدق التفاصيل؟ لماذا تجد في إعاقتي ملاذا لها؟

لماذا يلتصق الخريف بنا ويأبى الربيع الاقتراب منا؟

وقعت كلماته مثل رفيف الفراشات على روحها.. لا أدري

ربما هذه المرة الأولى التي ترى شابا يعجبها أو يرف قلبها إليه.. أو هي الحاجة لصوت رجل يعنيه أمرها.

رفضتُ تناول حبة المهدئ بعد الغداء، وفعلت مثلها في العشاء.. كنت رافضا حتى لمداعبتها وقراءاتها الشعرية.

يرتفع صدري عاليا بنفسه العميق والسريع، أكبتُ شهيقي المر وأرجعه إلى صدري، هو خاصتي أنا ليس لأحد سلطة عليه.

أخبرت "سلوى" بما دار بينها وبين الطبيب "محمود"، وما وصفه لعنقودها الرافض تناول الدواء، فاستعجلت القول:

- هل سيأتي مرة أخرى؟

- مَن؟

- الطبيب "محمود".

- أظنه سيأتي، لأنه قال سينتظر هاتفا مني.

- لماذا لا تتصلين به بعد يوم أو يومين لنسأله عن وضع "سالم وحمامة"، وهل ممكن العيش معا كمتزوجين، وما رأي الطب النفسي في ذلك.

غيرت ملابسها أثناء حوارهما وأجبتها:

- هذا يعني أنني سأقضي على مريضي نهائيا أن كان رد الطبيب لصالحهما.

- لكنك تخدمين اثنين بحاجة لخدمة.

- بل قولي سأخدم أما مجنونة ترغب بحفيد مهما كان الثمن.. لا بأس.. سأتصل بعد الغد لأخبره عن رفض "أحمد" تناول الدواء وأساله.

غمزتْ بنصف عين:

- عن الأحمدي فقط؟

سأسأل القلب الذي لم يتخدر بعد بفعل اغترابه.. قالت هذا وقررت الوقوف معها في صف" سالم وحمامة" وأحقيتهما بإنسانيتهما، رغم عدم قناعتها بذلك، شرط أن تتصل بالدكتور "سليم" أيضا تعرف منه عن قدراتهما البدنية، وهل الطب يسمح بذلك أم يرفض احترازا لولادة جنين متخلف ومنغولي.. وفي نفسها رغبة الاتصال بابيها الروحي الأستاذ جميل وأخذ مشورته بالأمر.

ثم استطردت:

- لماذا لا تفك الجراح عن مرافقنا؟

بالنسبة إلي أرجو من ربي أن لا يوافق الأطباء..، إنما لا ندري عن رأي المديرة.. والقرار الأول والأخير لأم "سالم" حتما ستفرح إن كانت الردود لصالح الزواج.

- اسمعي "سلوى": - ربما الدين يرفض ماذا سنفعل ساعتها؟

- لا تتعجلي سنرى كيف تسير الأمور ونقرر ساعتها.

- أتدرين.. لو فعلا تزوج "سالم من حمامة" سأنتقل "بأحمد" إلى المدينة قرب الدكتور "محمود" وألح على أبيه على الموافقة، أبعده عما سيؤدي بقلبه إلى الهلاك.

- أللـه أللـه بدأنا نبحث عن أسباب لننتقل قرب الدكتور "محمود".

- ولمَ لا فكلانا بحاجة إليه.. أنا و"عنقود"..

- إنها أفكار يا "سلوى" لا تأخذي بها، مجرد خاطر يمر ببالي.. فأنا أفكر معك بصوت عال ليس إلا.

توادتا وخرجتا إلى الحديقة تقلُّاني في الكرسي المتحرك وتتبعهما "حمامة وسالم" الملتصق بنا أنـّى سرنا وأنـّى تواجدت "حمامة".. بينما أنا بعيد عن أي حضور لأحد قربي، ليس هربا هذه المرة، بل بحثا عن شيء مفقود.

الرحلة التاسعة

حتى الليل له حقائب،
حين يرى عزمنا يعد للرحيل

غفونا، وكل منا غفت الرواية بين يديه.. لم نصحُ إلا على صوت "سحر" تطلب منا النهوض وتؤكد لنا استعدادها لأخذنا إلى صالة العرض.

صحا "أحمد" على ملل يفرك عينه ويتذمر.. يلعنني لأنني لم أترك له فرصة النوم بهناء بعد أمسية هي الأخرى مملة بالنسبة إليه، لأنه لم يعثر على حبيبته بين الحضور، مثلي تماما حين لم أر وجه أبي بين الحضور.

توقعته سيبتهج حين يراني ويرى التقدير بعيون الناس.. لكن التوقع بعيد المنال، تخيلته سيجلب أمي معه كونه يعرفها ويعرف الملهى الذي تشتغل فيه أو بيت الدعارة الذي يضم إنسانيتها المفقودة.

كل هذا لم يحصل وأتوقع عدم حصوله.

عملت سحر، اللازم، اللازم الذي يعيد لي هيأتي الإنسانية لأبدو جديرا

بلقاء الصحفيين والمعجبين.

تناولنا الافطار على عجل وقادتنا إلى المعرض، فوجئت بعدد الزوار، كان أكثر من يوم الافتتاح ويوم الأمسية.. ربما لعبت الصحافة دورا بذلك.. وربما جاءوا يتفرجون على معوق كيف ترتجف أصابه ويرتعش بدنه لمجرد مسك قلم.

قد تسألني إحداهن كيف أكملت روايتي إذا كان التوقيع وحده يؤذيني هكذا. وسأجيبها حتما بالكتابة وليس بصوتي خشية أن تخاف مني وتهرب.

سأقول لها:

- الكائن المغلول يبحث عن فك أغلاله بإصرار ولم يأبه للمعوقات.. بل يحفر بأظافره ليصل إلى حريته.. وأنا هذا الكائن سيدتي.

أكيد.. أو لا لا، لماذا التأكيد على قولي.. ربما ستكون إنسانة وقحة وتبصق علي.. لا أظن من يدخل معرضا ويخسر أجرة التنقل إليه يكون بوقاحة أمي أو أبي.. لا احد مثلها إطلاقا.. هنا أجزم وبثقة.

تقدمت نحوي امرأة شارفت الخمسين وقدمت نفسها إلي:

أنا السيدة "ياسمين". مديرة دار الأيتام، أرسلوا إليك باقة ورد حين شاهدوا صورك في الصحف.. جئت أقدمها إليك نيابة عنهم.

تسلمت "سحر" الباقة منها وشكرتها، فأشرتُ "لسحر" كي تهدي إليها لوحة طفل صغير يزرع نبتة في حديقة دارهم ونسخة من الرواية.

شكرتني ممتنة:

- سيفرح الأطفال حتما بهديتك، وسنضعها في صالة دار رعاية الأيتام لأنها تبرع منك.

هذه ثاني لوحة تصبح ملكا لمعجب.

انشغل "أحمد" بتتبع ما يشده بشكل السيدات..، شاب لا يعرف أين يتجه سلوكه.. لم أرغب مصاحبته وهو بهذه الهيأة.. أولم أخطط له هكذا يكون. يبدو غرور التمرد استفحل عليه، فهمه الخاطئ لمعنى التمرد وراء ذلك حين قلت له مرة علينا التمرد على كل صعاب الحياة لم أقصد التمرد على الجميل والسوي.. أتراه فهمني خطأ؟

سأقضي عليك إن بقيت هكذا يا "أحمد".. يبدو أنك أصبحت ابن أبيك.

أمثالكم لا وجود لهم في قاموسي.

نظرتُ إليه بحزن وقلت غاضبا بعدة إشارات من أصابعي، حتى اشتبكت مع بعضها كأنها في عراك.

- إن هؤلاء الرجال والنساء جاءوا من أجلي فلا تدع أية شائبة تشوب احترامهم لي.. كف عن تحرشك بتلك الصبية إنها صغيرة ولا يليق بك هذا السلوك.

كأنه لم يسمعني، تركها والتصق بامرأة في غاية الجمال يسألها:

- هل نالت إعجابك رسوماتي سيدتي الجميلة؟

استدارت إليه متعجبة من شبهه لملامحي متسائلة:

- - هل أنت قريب الفنان والكاتب؟

- نعم سيدتي أنا.. أنا هو تقريبا.

- برمت شفتيها استغرابا وواصلت النظر إلى "سحر" وهي تعدل من جلستي في الكرسي المتحرك وتشد قبضتها على يدي، كلما شاهدت إعجابا من أحد فعلت ذلك.

وخلال وجودنا يوم أمس واليوم تركت بصمة كفها الناعمة على يدي فأشعرتني بغبطة لا مثيل لها.

وقت استفزني "أحمد" بضحكة عالية، وبإصراره الظهور للسيدة السائلة عن الشبه بيننا، اتخذت قرارا بإلغائه من حياتي، هولا يستحق وقفته معي في الصالة.

نعم.. قلتها وإصبعي يشير إلى قصدي:

- أتحمل مسؤولية ذلك.

أفلتت "سحر" يدها من يدي.. فمضيت إلى وحدة قصيرة مع نفسي:

- يا إلهي، كيف لم انتبه لجمال سحر اليوم! تبدو أجمل من كل يوم بثوبها الأحمر المشجر بورود بيض صغيرة.. وشعرها الناعم يسترسل على كتفيها كأنه يغازلهما ويقبلهما بلطف.

الأصوات تتعبني، كما الجلوس طويلا في الكرسي أيضا، له ثقله على أكتافي وجسدي.. تمنيت الرجوع إلى شقة "محمود" بسرعة لولا الأصول والأخلاقيات في التواصل مع المعجبين.

رغم تعبي إلا أنني كنت مستلذا ومتفائلا بمقدرتي على إقامة معرض آخر في أيام قادمة.. وربما الاستمرار في كتابة الروايات.

إن عملية إعادة الحياة لإنسان بائس ليست سهلة إطلاقا.. والفضل في كل هذا راجع إلى "سحر" المتحلية بصفة الإيثار، وكذلك دكتور "محمود" فقد جاهد من أجلي كثيرا، تحملني أكثر. لهما الفضل ولجميع أسرتي في الدار.

كان الجميع يملك قدرة غير عادية وهم يواجهون أنفسهم ويتخطون الصعوبات ومعالجة الأمور بقوة إرادة.

أحبهم كلهم، وكم تمنيت أن يكون أبي دكتور "محمود" وأستقر في شقته إلى الأبد.. لكن الواقع يجردني من الأمنيات.

انفضَّ الجميع وتنفستْ الصعداء مستبشرا بالعودة، فقد بدا الإعياء علي واضحا.. مع ذلك يتخلل الفرح روحي، يهديني حياة أتحدى بها الطغاة.

أبي وأمي أحقر طغاة العالم..، لكن ربما طغيانهم جعلني أخلق من صدع الإعاقة إنسانا جديدا... أحيانا القبح له دور مهم.

إن ظهرتَ لي أو فكرتَ يوما برؤيتي يا أبي، سأخفي وجهي عنك.. الموت في وجهك لا يروق لي.. ولا أحب رائحة المستنقع في مسام جلدك.

ونحن على مائدة الغداء.. أفصحت "سحر" عن ضيوف قادمين الليلة.. وقع كلامها ثقيلا علي، لا أطيق هذا الكم من اللقاءات يتعبني جدا.. وحين لاحظت تبرمي قالت:

- إنها من أهم اللحظات في حياتك يا عنقودي.. ولا بد منها.

استسلمت لأمر الواقع وطلبت منها أن تأخذني إلى الغرفة للراحة بعض الشيء ريثما يحين وقت العشاء ونستقبل الضيوف.

أدخلتني الغرفة وغيرت ملابسي الداخلية التي ازدادت بللا بسبب طول الوقت في القاعة، أسقتني قدح ماء وغطتني كي أرتاح بإغفاءة بسيطة.

في هذه اللحظة بالذات ضحكتُ على نفسي كثيرا، وعن تفكيري بالزواج، أية امرأة ستقبل رجلا يبول عل نفسه؟ وأية "حمامة" ستقوم بمثل هذه المهمة؟

"أحمد " مثل ظل لي.. أينما وكيفما كنت يكون.. رفع الغطاء ودخل معي السرير.

أخذ الرواية دون أن أطلب منه، وشرع يقرأ، ومثله فعلت أنا ريثما تسيطر علينا الغفوة وننام علينا انتهاز الوقت واستكمال ما بدأنا به.

سألني أحمد:

- بأي رحلة نحن؟

- أجبته: التاسعة.

*

كان الليل يمس أضلعنا فيأخذنا الوهم ساعة.. ويجرفنا الواقع لساعات كي نعيشه كما هو، لا يخلق فجرا أو يرتجي غدا.. في الدار أسمع الآخرين وأسمع نفسي، فأصبح مجذوبا إليهم وكأن الليل مضجعي وإليه تستكن قلوبهم ويستكين قلبي، حين احتضن دموعهم أو حشرجة صوت الألم في صدورهم أجدني قد شخت والزمان ملأ نفسي بالاختصار. أحيا مجددا على صوت مرعب لمريض.. وأتمسك بأسرتي.. حيث أصبحنا أسرة من خمسة قلوب، أنا "وسحر وسلوى وحمامة وسالم"..

أما اليوم.. اليوم بالذات أقف أمام نفسي متسائلا عن سر اهتمام سحر بالدكتور "محمود"، هل وجدت به خيط ضوء في عمرها المجدب؟

ألهذا قررت الاتصال به ثانية وثالثة، بأسباب وبدون أسباب متحججة بأي عذر، تحرضها الرغبة إلى سماع صوته؟

دخل عالمها هذا الشاب الوسيم بحلو كلامه وهيبته وحركة الواثق من نفسه التي جعلتها تتعلق بكل تفاصيله.

في خوضها تجربة الحب أدركت مرارة ألمي ومع هذا وقفت بصف "سالم وحمامة"، لا يدرك الأمر جيدا إلا من يجربه.. عذرتها ولمتها كثيرا.

عرفتْ لماذا يلتصق بنا "سالم" أينما ذهبنا، بل صرت أشعر بأنفاسه المتلاحقة وزفيره وهو ينفخ منخاره الصغير ويرفعه بزم شفتيه ومطهما.

وقفتْ أمام المرأة في غرفتها وراحت تقلد "سالم وحمامة" حين تفتح ذراعيها مثل حمامة حقيقية للهواء الرحب وللفضاء. . . الليلة رأت أم "سالم" محقة. . عجيب هذا الحب كيف يسهل الأشياء وينظر إليها بمنظاره الجميل. كل شيء يصبح لذيذا لو نظرنا إليه بعين الحب.

استغربت لتصرفها. . تقف في صف "سالم "وتتركني. . هل لأنها لم تجد حبي "لحمامة" حبا متكافئا؟ أو حب من طرف واحد؟ أو قد عرفت عجز رجولتي؟. . لكن قلبي من له يا ربي؟

لماذا خلقتني غير صالح لأية صفة من صفات الحياة؟

لم تملك "سحر" الشجاعة الكافية كي تسأل عن وضع "سالم" الصحي، وهل يسمح له الطبيب في الزواج وهو القاصر عقليا لكنه صحيح بدنيا، ما عدا شكله الذي فُرض عليه قصر اليدين والوجه المسطح والعينين الضيقتين ذات الاتجاه العرضي. . رغم قصر قامته كان قوي البنية بسمنة وشعره المسترسل على جبينه يتحرك معه كيفما تحرك.

أخذت تسأل عن ملفه الصحي والتواصل مع أطباء خارج الدار للتأكد من قدرته الجنسية وهل يستطيع أن يقوم بواجبه كزوج. . في ملفه الخاص في الدار أشياء بسيطة لا ترشدها إلى ما تريد، فاتخذتها حجة كي تتصل بالدكتور "محمود" :

- مرحبا دكتور، أنا "سحر".

- أهلا ومرحبا "سحر" هل من خدمة أقدمها ؟ وما هي أخبار "عنقود" هل تحسنت حالته؟

- لا للأسف لم تتحسن، لأنه يرفض تناول الدواء مهما حاولت معه.

- هل اتصالك اليوم محبة أيتها الفراشة الجميلة؟

- بل رغبة في الاستفسار عن نزيل آخر.. هو منغولي وأنوي التعرف على وضعه الصحي بشكل مفصل ومعه نزيلة أخرى.. كيف أصل إلى ذلك ولمن ترشدني؟

- ماذا تريدين أن تعرفي بالضبط.. لعلي أخدمك في أمور كثيرة، ولا تنسي أنني طبيب نفسي يعني خدمتي مضاعفة.. كم تدفعين؟ ها ها ها.

- إذاً لابد أن تزور الدار، منها نسعد برؤيتك ومنها تكشف على المريضين.

- ما رأيك في يوم الجمعة؟

- وهو كذلك بانتظارك على لهفة.

عاقبت نفسها على جرأتها، كيف تكون معه بهذه الوقاحة وتفصح عما في قلبها من حب تجاهه.. لماذا قالت له بانتظارك على لهفة.

يبدو أن الحب لا يخفي نفسه بل يفضح صاحبه.

معك حق يا "سالم" حين يقودك حبك إلينا وإلى الكرسي اللصيق "بحمامة".. ومعي ألف حق وحق حين أنطوي على جسدي هاربا من روحي المعذبة بحب فاشل... الجميع هنا منهمك فيما هو فيه ونحن العشاق الأربعة منهمكين في حبنا.. "سالم" يطارد" حمامة" أنا أرسم وأمزق، و"حمامة" تفتح ذراعيها ومنخاريها للدنيا.. و"سحر" تفتح قلبها للحب الأول.

حكت "لسلوى" عن تعلقها "بمحمود" فاستوعبت فرحها قائلة:

- كنت على علم بذلك... عيناك فضحتا ولهك عليه عند زيارته في المرة السابقة، وأظنه تحجج بالسؤال عن "أحمد" وتغيير الدواء له.. هو مفضوح مثلك يا عاشقة.

- أتظنين بأني لم أرك تميلين إلى الدكتور "سليم" يا غاليتي؟؟ أنت أيضا مفضوحة.

- أجابتها: - أنتِ واهمة.. ربما هو يميل إلي، إنما أنا لا أفكر بالطريقة التي تفكرين.. فلا تأخذك الأوهام بعيدا.

كان الضوء ما زال يملأ الشباك لذا أغلقته لتوفر بعضا من برد المروحة.. وهي تغلق نافذة الغرفة ابتسمت في وجه "سحر" قائلة:

- هل عرفت الآن لماذا دافعت وما زلت أدافع عن حب "سالم وحمامة"؟

- أنا لست ضدهما لكن خوفي على "أحمد" من عاقبة حب يخفيه في صدره.. ليكن يا صديقتي فأنا اتصلت بالدكتور "محمود" كي يكشف عليهما جيدا وساعتها نقرر.

حل يوم الجمعة وتهيأت له من ليلة الخميس، اختارت ثوبها وزينتها وعطرها.. في الصباح لفتَ قرطها انتباه "حمامة" فأشارت إليه راغبة فيه، وعدتها بشراء مثله هدية لها.

كانت تترقب الساعة ووجهها إلى غرفة المديرة لعلها تناديها لأخذ الدكتور إلى غرفة التمريض، فقد استأذنتها بقدوم "محمود" وشرحت لها القصد من ذلك، أيدتها لكن لم تكن راغبة بجدية، خاصة أن زواج المنغوليين يرفضه الكثير من الأطباء وعلماء الدين إلا إذا وجدوا ثغرة ما أو رأيا يستندون عليه ليفرحوا قلبين ربما حياتهما قصيرة... مع هذا كانت المديرة غير راغبة بما تقوم به" سلوى وسحر حول سالم وحمامة".

كانت تنتظر بفارغ الصبر وهي ترى "سالم" يخضع إلى أسئلة الطبيب له ويفحص كل أعضاء جسده.. توصل إلى نتيجة بأن "سالم" ذو ذكاء من درجة بين الستين إلى السبعين في المائة، وبإمكانه أن يتعلم أية مهنة يدوية بسيطة ليعيش منها.. أما حمامة

فذات ذكاء يقع بين الخامسة والأربعين والخمسين.. وجسديا صحيحة.

سألته:

- يعني هل يحق "لسالم" الزواج دكتور من الناحية الفيسلوجية وكذلك "حمامة"؟

أجابها:

- "حمامة" يمكنها الزواج فالمرأة المصابة بهذا الداء تكون قادرة، أما "سالم" فالأمر مختلف.. صحيح هو يملك وعيا أكثر نسبيا من "حمامة" لكنني لا أظنه سيمارس وضعه كزوج عادي، لأن عضوه التناسلي صغير جدا وغير قادر على الانتصاب أو ضعيف من ناحية رجولته.

- لماذا الإصرار على سؤال الزواج ولماذا فحصهما؟ أليسا تحت رعايتكم في الدار؟

- نعم دكتور لكن أم "سالم" تتمنى تزويجه وترغب بحفيد، فهو ابنها الوحيد وقامت برعايته بعد وفاة والده، لكنها لم تعلمه كما نحن، قصدتنا بعد زيارة لها إلى الدار في رفقة صديقة لها.

- الرائعة "سحر".. زواجهما لا يقدم ولا يؤخر شيئا لهما، وإذا كانت الأم مصرة، عليها التكلف برعايتهما رعاية خاصة لأنه لا نعرف عاقبة تلاحمهما جسديا... وقد يؤدي فشل "سالم" في ذلك زيادة في التوتر مما يؤدي إلى إصابته بحالة نفسية هو الآخر.. لا تتصورن أنهما من الأسوياء.. أنا ضد فكرة الزواج المجنونة.

- لكنهما يحبان بعضهما، و"سالم" ملتصق "بحمامة" بشكل جنوني، هل تسمي هذا انجذابا غريزيا أم حبا كباقي الناس؟

- كلاهما.. فالمنغولي لا يعني أنه بدون عاطفة، بالعكس يكون مرهف الحس ويميل إلى الموسيقى والغناء مثل أي شخص عادي.

وإذا كانت أم سالم ترجو حفيدا فأخبريها أن هذا الاحتمال ضعيف، لأن دورة المنغولية تكون في أغلب الأحيان خالية من التبويض، والسائل المنوي لدى المنغولي فيه عدد قليل جدا من الحيوانات المنوية. . ، هذا إن حصل جماع بينهما، رغم ضعف وضعه الذكوري، وعليها معرفة من يكون ابنها.

أوضحي لها ذلك لعلها تستوعب. . . أن المصابة بمتلازمة داون ممكن تنجب في بعض الأحيان إذا تزوجت سليما. . ترى هل ابنها ستتغلب شهوته العارمة على الإعاقة؟ هنا الجواب والاحتمال. . . فكرة تزويج معاقين وبالأخص منغوليين تعني البحث عن متخلف جديد. . هل ترغبين بولادة متخلف آخر تعذبينه بعدم فهمه للحياة؟

- أبدا، فأنا لا أوافق، وهذه رغبتي أيضا.

شكرته وجلسا يحتسيان الشاي في المطعم، ثم جذبتهما أحاديث كثيرة. . حول النزلاء وعلاقتها بي ومحبتي إلى الشعر وكتابتي شعرا بالإشارة.ورسوماتي الجيدة.

طرح عليها فكرة مشاركتي بمعارض المدينة إذا قاموا بمساعدتي . . . . ثم انتقلا إلى هواياتهما، ولاحظا أن أغلبها مشتركة، مثل قراءة الشعر والروايات. . والسماع إلى الموسيقى الكلاسيكية. . واتفقا على أن يزور الدار دائما اطمئنانا على صحتي، رجته أن يحضر السوق الخيري في الشهر الخامس من هذا العام.، قد يفكروا بمعرض المدينة لأحمد وسرور. . فهو أيضا من الموهوبين في الرسم. . ورجت منه الاهتمام أكثر لأمرنا، فالاهتمام من غريب عن الدار يزدنا ثقة أكثر بأنفسنا.

سأفعل قالها: - لي أصدقاء فنانين في العاصمة وسأطرح عليهم الموضوع. مؤكد سيرحب أغلبهم بذلك.

أخبرت "سلوى" بنتيجة الفحص لكنها ارتأت رأيا آخر ليطمئن قلبها، فقررت الاتصال بالدكتور "سليم... سألته بحماس، لكن النتيجة هي ذاتها:

- الآراء متضاربة حول زواج المعاقين والمنغوليين، بعضهم يقول من الممكن تزويج المنغوليين شرط أن يكونوا تحت رعاية الأسرة بشكل دائم.. ثم أن الزواج ألفة ورحمة ومن وجهة نظري الشخصية أنه يريحهم نفسيا ويشعرهم بالأمان ولا يُشترط الإنجاب بقدر الأمان والألفة وما أحوجهم إليها.

- اسمح لي دكتور. حضرتك مطلع على حالة "سالم وحمامة" فماذا تقترح، هما يحبان بعضهما، وأم "سالم" تنوي تزويجه؟

ضحك دكتور "سليم" بأعلى صوته قائلا:

- الله ليتني منغولي أقلها تحرص أمي على تزويجي وأنا مازلت أبحث عمن تقبل بي.. جميل والله سررت لهذا الخبر.

- وهل حضرتك جربت تسأل عن التي تريدك؟ جرب اسأل عنها دكتور وستجدها بين يديك.

- أللهِ أللهِ.. هذا يعني انك خطبت لي ولا أعلم؟

- أنت فقط مرني وسأبحث عن إنسانة رائعة تستحقها وتستحقك.

- خلاص يا "سحر" فوضت أمري إليك.. ها ها ها... ولنتزوج أنا والمنغولي في ليلة واحدة.

- على فكرة.. "سلوى" تخصك بالسلام.

- تحياتي لها.. وقولي لها لطفا.. أني سأزور المديرة قريبا.

- المديرة؟

- أظنها ولية الأمر؟

- اتفقنا إلى لقاء قريب.

قالا ذلك ومزحا مع بعضهما بالألغاز التي تظهر أنهما يفهمان ويخفيان عن بعضهما ما يرومان إخفاءه.

ذهبت "سحر" فورا إلى غرفة سلوى وأخبرتها عن الدكتور "سليم وإشارته بقوله أنه سيزور المديرة قريبا، وقوله أيضا أليست هي ولي الأمر.. كلها تدل على أنه سيطلب يدك من المديرة..

- هذه أوهام وأنت فسرت الموضوع بما يحلو إليك.. دعينا الآن من هذا، ماذا كان رأيه الطبي حول زواج سالم وحمامة.

- تقريبا أيد الزواج واعتبره حاجة إلى الألفة بينهما وضرورية كونهما سيتأثران جدا لو انفصلا.

واستطردت قائلة:

صديقتي... إنسانيا يجب الجمع بينهما، أقلها نعوضهما الحب الذي يفتقدانه بعيون الآخرين والنظرة الدونية من المجتمع.. نحن بحاجة إلى ثقافة إنسانية لنستوعب ذلك.. في مجتمعاتنا العربية للأسف الشديد. لا نعاملهم على أنهم بشر مثلنا، ونتصرف معهم من منطلق النقص، تُرى كيف ينظرون هم إلينا؟

قررت "سلوى" مفاتحة المديرة بإيجاد وظيفة "لسالم" يعيش منها هو وحمامة مستقبلا.. ورغبت معرفة رأي "سحر".

أجابتها "سحر" جواب من لا يعرف العاقبة:

- فكرة جيدة، لكن ماذا سيشتغلان؟

- ينظف مع عامل النظافة هنا، و"حمامة" يمكنها مساعدة "نورة" في المطبخ وبأجر بسيط، وبنفس الوقت يبقيان تحت نظرنا.

- جميل جدا يا أم الأفكار.

طلبتْ من "سلوى" التريث، ولا يأخذها التعجل في أمر "سالم".. أرادت تغيير استمرارها في الرفض بطرح سؤال:

- والآن أخبريني متى نبدأ في مشروع السوق الخيري؟

- الأسبوع القادم سيكون أول أسبوع، وسنختبر مهارات الجميع ونقود العمل على هذا الأساس.

اقترحت "سلوى" أن تقوما باختبار من لهم صوت جمل ولديه استعداد لتعلم الموسيقى لتجعلا من الحفل حفلا رائعا.. وكذلك من له القدرة على الرسم.

- فكرة رائعة عزيزتي "سلوى" سأدرجها في التقرير وأقدمه للمديرة صباح الغد.

- هل أخبرها عن ما قاله الدكتوران عن "سالم وحمامة"؟

- ضروري يا "سحر".. لعلها توافقنا أو ربما لها رأي آخر.. لكن في النهاية القرار لأم "سالم" وليس لنا، ونحن نساعدها.

كيف "أحمد"، هل مازال رافضا للدواء؟

قشرت تفاحة وضعتها "سلوى" على طاولة صغيرة في غرفتها وبدأت تقضم منها وتقدم "لسحر" وتواصل حديثها معها:

- حالة "أحمد" مزرية، يرفض حين أسقيه دواء الإسهال، ويأخذه بعد إلحاح، أما دواءه النفسي يرفضه قطعا، وأظنه يخبرني بهذا الرفض أنه غير مريض نفسيا، بل يعاني مرارة العشق ويكتمه، حتى غيرته وغضبه يكظمهما حتى لا يظهر ضعفه أمامنا.. يا لهذا الشاب القوي البائس.

- أحببته وتعلقت به، فلا أقدر على رؤيته بهذا الحال.. أخشى عليه كثيرا وأدعو ربي أن ينزل عليه رحمته وسلامه... ألا يكفيه إهمال الأب وغياب الأم؟... أنا في غاية الاستغراب من

أب وأم يخجلان من ابنهما المعاق. . . أية أم هذه. . على الأقل نحن نعرف أبا "أحمد" لكن الأم في مصير المجهول.

- لا أعرف ماذا دهى البشر؟

الحياة المادية واللهاث خلف المادة جعلهم ينسون أبناءهم.

إنه شاب حساس للغاية وذو قلب كبير. . دائما يحيطني بضوء قلبه عندما يرى الألم تسلل إلى روحي. . ربما يمتلك حاسة سابعة، بل عاشرة، فقد عوضه الله بقلب كبير وموهبة إبداعية.

ذات مرة ودون أن أشعر سالت دموعي بغزارة. . مرت صورة طفولتي البائسة وحرماني من جو الأسرة. . فوجدته مستدعيا كل الحب ماسحا دموعي بيد دافئ ارتجافها. . أخذ بيدي ووضعها على صدره. .

حتى اقتراب "حمامة" منك والتصاقها بنا نحن الاثنتين. . دليل على أنها تختزن بين أضلعها حروفا مائية تنساب حنانا ساعة مشاركتنا. . على الرغم من جهلها لما يحدث، لكنها تتوحد بنا فطريا.

ذات عصر كنتُ صامتة قرب كرسي "أحمد" وفجأة وجدته سحب جسده باتجاه وجهي. . نظر إلي بعينين تحملان أجنحة العصافير التي كان يتطلع إليها وهي مزغردة على الأغصان. . يؤشر لما فوق فهمنا أو في حدوده. . بعدها أدهشني باحتضانه يدي بين صدره وانطوائه عليها، انحنيتُ عليه :

- أنت ذلك العصفور فوق الشجرة. . . تبسَّم وأغمض جفنيه، ومال كله نحوي.

ونحن في خلوتنا دخلت علينا "حمامة" تلعق سلسلتها الفضية وتشير بها إليّ. . أخبرتها بأنها جميلة في رقبتها وأعطيتها قليلا من عطري. . فرحت به كثيرا. . يسعدها العطر وتسعدها الهدايا

والتدليل والاهتمام.. وتُسعد كثيرا في حصة الموسيقى خاصة حين يضع "سالم" يده في يدها.

أترين صديقتي كم أسعدتها كلماتي البسيطة ولطفي وحناني؟

مساكين هؤلاء الضعفاء يقبلون بأقل التفاتة منا نحن الأسوياء.. ويهنئون لابتسامة وضمة صدر.

لعبت بشعرها بلطف واحتضنتها.. أدارت ذراعيها حول "سلوى" ومسحت بعض مخاط ولعاب سالا منها في ثيابها دون قصد منها.

ضحكت "سلوى" إنما بدت كلمات غريبة من "سحر":

- غدا حين يقترب منها "سالم" ستمسح مخاطها فيه.

لكننهما توقفتا رأسا عن الاستهزاء بهما وأدركتا فعلتهما المشينة، لذا احتضنتا "حمامة "معا.

فتحت "سلوى" درج الخزانة واستخرجت ساعة بسيطة كانت قد ابتاعتها منذ زمن وألبستها "لحمامة"... قامت تنط وخرجت مسرعة "لسالم" تُريه الهدية.

بعد ثوان معدودة دخل "سالم" يشير إلى يده طالبا مثل "حمامة".. وعدته "سلوى" بشراء ساعة له قريبا إذا تعلم كيف يساعد العم "يونس" الفلاح في سقي الزرع والعناية بالزهور.. أخذته من يده وأوضحت له ما طلبته منه.

مرح في الحديقة وضحك حتى رأيت بلعومه وكل أسنانه القصيرة المتآكلة، أخذ خرطوم السقي من يدها وراح يرش علينا جميعا الماء ضاحكا بأعلى صوته و"حمامة" تدور حوله. ضجرتُ من بلل ملابسي ألا يكفيها بلل البول كي يبللها سالم بالماء.

انفعلت بحدة، لكن "سحر" اعتذرت لي نيابة عنه.

قالت لسلوى:

- الأفضل أن يساعد العم "يونس"، هذه مهنة بسيطة وممكن تعلمها بسهولة ويتقاضى عليها أجرا.. كما سأخبر العم "يونس" كيف يتعامل معه.. ومثله "نورة"، سأرشدها كيف تعلم "حمامة" تنظيف الأواني في المطبخ.

بعدها أطلب من المديرة جعلها وظيفة دائمة لهما ولو بأجر رمزي، على الأقل تقيهما الحاجة إذا لا سمح الله توفيت أم "سالم "وبنفس الوقت يبقيان تحت رعاية الدار.

استقبلت "سلوى" اليوم بفرح وأفصحت "لسحر" عن سر فرحها:

- أشعر بسعادة لا توصف، سأسْعِد قلبين، يا إلهي أعنِّي على ذلك،

هبهم يا ربي الدنيا كلها.. الارتباط فعلا كل الدنيا لهما ولي سيكون.

أجدهما ملاكين طائرين في فضاء رحب.. يذهبان إلى رفاقهما سعداء، بعيون يلتمع فيها بريق بالحب... يتجول "سالم" في باحة الدار مثل فتي تلعب معه الأيام وتسكره بالفرح.

"حمامة" كأنها طائر يثب بخفة خارج الغيم وينطلق، تذهب كل صباح إلى رفيقاتها وتضع بين أيدهم السلسلة الفضية ليتفرجوا عليها، ثم تمسك بيد "سالم" يغادران المكان إلى المرسم، ويتنقلان كل مرة في مكان.

المنغوليون الأربعة في العنبر مع "سالم" كانوا أقل منه فطنة وأكثر تخلفا.. بحيث احتاجوا لمربية أخرى مع "سلوى" ومشرفة اجتماعية، نسبة الاستيعاب لديهم جدا ضعيفة في دروس الرسم والموسيقى، وكذلك في تقليد الإشارات لفهم أيام الأسبوع ولعب قياس الذكاء في ترتيب الأرقام والأشكال في أمكنتها على الورق..

لاقت "سلوى" والمشرفة معها جهدا كبيرا، والفائدة غير متكافئة مع حجم الجهد المبذول. "حمامة" أكثر منهم وعيا و"سالم" أكثر من حمامة.. لكن للجميع فارق بين عمرهم الزمني والجسدي.

"حمامة" أصبحت متفوقة على البنات معها.. "عائشة وفاطمة " متخلفتان عقليا من الدرجة الشديدة والعناية بهما أتعبت الجميع، مع هذا الكل هنا متفائل ويعمل من واجب إنساني أكثر منه وظيفي أو التفكير براتب إضافي.

من ناحية "سحر" أوكلت إليها المديرة أمور دروس الموسيقى والرسم، فخففت عن كاهلها رعاية بقية المعاقين، لأن أغلبهم يقضي حاجته في سرواله ويحتاج لتمريض، خُصصت لهم ممرضة تبقى معهم في الدار إضافة إلى المربية.

الرواتب هنا ضعيفة وأغلب الموجودين مقتنعين خاصة مَن هم مِن أمثال "سحر"، لا مأوى لديهم ولا دار.. وحاجات الدار يقدمها الأهالي الذين لا قدرة لهم على دفع أجور أبنائهم، وبهذا تكون الحسبة متعادلة، إلا الرواتب الخاصة بالموظفين، تدفعها لهم المديرة من أجور الأهل الميسورة أحوالهم من أمثال أبي، والمختار الذي جلب ابنته عائشة وهي في سن الخامسة.. وكذلك مدير شرطة القرية.. عقد صداقة قوية مع المديرة كونه ينتمي إلى أسرة زوجها من بعيد، لكن غرضه غير التقارب الأسري.. كان ينوي الزواج منها، وبتقربه إليها مصلحة شخصية.. فيجزل العطاء للدار لتربية ولده المعاق من الدرجة الأولى، وزوجته الثانية رفضت العناية بابنه فكانت الدار خير مأوى.

حل يوم الاثنين من أول أسبوع متفق عليه لاجتماع الأسر.. حضر الجميع نساء ورجالا إلا المختار ومدير الشرطة وأبي... أمثالهم فلوسهم تعوض عن الحضور، واتصالاتهم بالاعتذار تتشعب

وتصبح شبكة أعذار لا قيمة لها بالنسبة للمديرة. . . الكادحون أقرب إلى العطاء الإنساني من ذوي الأرصدة.

قلوبهم الحنونة تلبي دعوة جماعية، وفي الوقت ذاته تجلب لهم رزقا غير متوقع وتسد رمق العوز والبطالة.

سألت "سحر" النساء عن إمكانية كل منهن للعمل اليدوي واختارت بعضهن كي يتعلمن التطريز وعمل ملاءات الأسِّرة. . والباقيات يعملن على نسج الحصر من سعف النخيل والسلال والأطباق. . وطلبت من أم سالم نسج أغطية الرأس للرجال "اللاطيَّة" وهي الغطاء الذي يضعه الرجل على رأسه تحت "الغترة". . كذلك خياطة الملابس للأطفال. .

أما الرجال فتبرع كل حسب مهنته. . شاركوهم همهم الجماعي، كل من الخياط والفلاح والنجار والمعلم. . وقع اختيارهم على معلم الرسم ليساعدهم في المرسم لاكتشاف المواهب وتنميتها فنيا. . ، وأكدتُ "سحر" على موهبتي:

- ابني عنقود موهوب جدا ويستحق الوقوف معه، ستكتشف فيه فنانا كبيرا وشاعرا وكاتبا أيضا.

كان لا بد من اختيار الترفيه، لذلك طلبت من الجميع إخبارها عمن يجيد الغناء فيهم. . فأشاروا جميعا إلى فتاة ورجل متزوج رشحته زوجته.

اتفقت مع سلوى على اجتماع يوم الخميس على أن يجلب كل منهم ما يخص دوره كي يبدأ العمل الجاد.

اقترحت المديرة شراء المواد الأساسية بالمناصفة بين الدار وبينهم، حتى لا تثقل عليهم ويصيبهم الملل، وبنفس الوقت لو تقاسمت الدار معهم الأجرة ستجد منهم القبول ورحابة الصدر.

بعد فض الاجتماع عادت "سحر" إلى غرفتي واصطحبتني إلى

الحديقة ومعي "سالم وحمامة" يدوران خلف بعضهما مثل طفل فقد لعبته ويكركران بصوت خرج من حنجرتيهما عويلا.

بينما أنا مطرق الرأس لا رغبة لي في المشاركة حتى في النظر إليهما.. فاجأتهم بأغنية الإنسان، وكيف ومتى يصبح إنسانا يتحلى بصفة الإيثار.

هي لم تكن أغنية بل أنا ارتجلت الكلام ساعتها ونغمتها لأوصل إليها ما أريد.

صوتي المخنوق لم يعبر عن الأغنية بشكل صحيح ولم يُظهر جمال الكلمات واللحن.. لكن "سحر" من الإشارة عرفت الشطر الشعري وتركت أحبالي الصوتية تلوك بعضها.

استدركتا وضعي فأشارت "سحر إلى سلوى" بأخذهما إلى المرسم ريثما تختلي بي وتتحدث معي توصل إلي فكرة الزواج، وفي الوقت ذاته تسليني.. لعلها تزيح عن فكري وقلبي حب "حمامة".

توجهت إلي:

- أحمد.. متى ترسم لي صورة؟ أريدها كما تشعر بي أنت لا كصورة مطابقة لشكلي.. مثلا كيف تراني وماذا أمثل إليك وقربي منك ماذا يعنيك. ارسمني بما تشعر تجاهي ابني الغالي، هل تتفهمني؟

تحركتُ بتثاقل موضحا الموافقة، رفعت يدي اليمنى وضعتها على صدري موضع القلب.

- أعرف أنني في قلبك لكني أريد أن تظهر هذا الحب فنا وتشارك به في المهرجان والسوق الخيري.. سيشارك رفاقك كل حسب قدراته... ربما "أحمد" سنسعى لتشارك في معرض المدينة مع فنانين مثلك.. يعني نتجاوز حاجز الدار إلى المكان

الأرحب.. أنت لست إنسانا عاديا يا بني أنت موهوب.

شبكت كفي بقوة وأدخلتهما بين طيات أضلعي، ثم فتحمها ورسمت بسبابتي اليسرى كلمة "أحبك ماما".

قبلتْ رأسي واقتادتني إلى أغصان ورد الجوري.. قربت أحد البراعم من أنفي مشيرة إلي:

- هذا أنت، برعم حياتي وصديقي وابني.

ضاقت عيناي المبحلقتان فرحا وابتهاجا.. ثم صمَتُّ ومررت أصابعي على يدها.

كل شيء يضيء في عينيي حين أشعر بحنانها من خلال تمرير أصابعي على كفيها.. حتى وإن لم يكن لديها ما تقوله أجدها تشعر بزخم الحنان تحت جلد يدي المتسرب إليها عبر أوردتي..

هنا لا نحتاج إلى تجاذب الود المزيف لأنه لا يعنينا ولا يدخل قلوبنا، الود نشعر به من خلال لمسة أو نظرة.. تقترب إلينا السماء بطيبها للمسة يد وطبطبة عليها.. تصبح ألوان الثمار الناضجة ملكنا ولون شفاهنا.

يُخيَّل إلي أن كل الأمْسِية تدخل أبوابنا لتنعم بالملاك الساكن عيون النزلاء المعاقين.. كأن الزمن يكتمل بهم.

إننا مثل الشجر تماما.. من يلامس شفتيْ شجرة لا يموت، فهو ممتزج بالخضرة.

لهذا حين تولت "سحر" رعايتي، جربت قلب الأم قبل أن تصبح أما.

كانت تقول" لسلوى" دائما حين تصفنا:

- لهم علامات ومعاني كثيرة، قد يعرفونها أو لا يعرفونها، إنما يحاولون قول أي شيء يصفون به شعورهم تجاهنا، محبتهم انفعالاتهم، رغباتهم في الأكل، العاطفة، الحياة، الموت، كل

شيء لكن الصمت يدركهم فيحول دون ذلك.

أما "عنقود".. فهو يبحث عن شرفة ما.. شرفة تفتح مصراعيها له وتدخله محرابها.. ثم يأتي الواقع على صوت أحد النزلاء فينقله من حلم أبيض إلى قهوة مُرة.

يوصل إلي كل ما يدور في خاطره وكأن بيننا ذبذبة مغناطيس، وبالأخص حين أضع رأسه في حجري وأجلس قرب وسادته.

وأنا أقص عليه حكايتي من الصغر حتى مجيئي هنا، يمدد جسده على الفراش وينصت إلى خسارتي قبل قدومي.. أشياء كثيرة تملؤه، يتنفس بعمق وينفث زافرا مثل مدخن يوزع دخان سجائره في الهواء.

أبحث عن كلمة لا تختنق بصوته، الكلمة التي لا تموت على لسانه

وأسأل أشرعة فمه:

- على هذه الضفة بعض كلمات.. هيا التقطها مثل حجر وارمها في ماء فمك لينطلق الصوت.

فأعود لصمتي بعد عجزي وعجزه.

في ليلة قمرية.. فتحت النافذة، أطل القمر منها مرحبا بنا.. أدارت وجهي صوب الشباك:

- أحمد.. كل شيء منير أليس كذلك؟

صمتُ كعادتي حين يطرح أحد علي سؤالا، وتخونني حتى إشاراتي وقتما أخاطب روحي من الداخل.

- عنقودي الغالي..

ليس من الصعب أن تملك الفقدان، لكن الأصعب أن تتمسك بابتسامة ولا تدعها تهرب منك.. أنظر.. إنه القمر يبتسم فلا تدع

هذه الابتسامة تفلت من يدك. . . صدقني ولدي أنت صديق القمر وهو يتلصص عليك ليسرق منك نظرة.

حركت سبابتي يمينا ويسارا وأنطقت الأصابع بكلمة" حقا " . . أجلستني على الكرسي وقربتني من الشرفة بحيث جعلتني أري ما يحكيه إلي القمر. . فروح الشاعر فيّ تستدرك الحكاية، ظنت ربما تثير فيَّ شيطان الشعر.

رعش بدني الضئيل حتى خافت علي من نوبتي المعهودة. . عرق جبيني ومال رأسي إلى الوراء.

تعرف جيدا أن روحي الآن تعزف أغان لها نغمة طفل بداخلي، ولها نغمة عاشق محروم يعاني من يأسه في الحب. . ارتعشتُ بقوة ومأمأت بلغة لم تصل إليها علما أنها تعرف مصدرها. . شرعت تغني لي الأغنية ذاتها التي أعشق، بكيتُ بحرقة وسالت دموعي على منامتي.

أصابعي لا تستطيع الإمساك بالقلم، ترتعش ويسقط منها أرضا، لذلك أتقنَ لغة الإشارة وأصبحت سبابتي هي القلم والهواء وهو الورق.

أخذتني إغفاءة عميقة فنقلتني إلى الفراش. . خرجت على أطراف أصابعها عائدة إلى غرفتها تبتهل إلى السماء لعلها لا تخون من في الدار جميعا.

وبحركة الباب صحوتُ، رجوتها أن تصطحبني معها أينما ستذهب.

وقت دخلنا غرفتها سمعنا طرق الباب، وإذا "بسلوى وحمامة" المبتهجة المبتسمة دائما، هي لا تملك غير لغة الابتسام، لغة تضيف إلى روحها سرورا وبراءة.

لم تمر الدقائق مسرعة. . كانا يحاولان إبطائها، ليعطيانها

نمطا جديدا كي تستمتعان بالحديث معا ووجه "حمامة" المنصت إليهما.

قالت "سلوى لسحر":

- سأخبر أم "سالم" عن موافقة أحد الأطباء في الزواج.

والمديرة بعد إصراري عليها أجابتني بعدم معارضتها لكنها تخشى الوصول إلى نهاية مؤسفة.

غمزت لها "سحر" لتغيير الموضوع. لكن تبعثر الكلام في فم "سلوى" ولم تعرف كيف تداري تلعثمها وحرصها على عدم إيلامي، حولت الكلام إلى شيء مستحيل حصوله:

- الطب وقلنا لا بأس، لكن ما حكم الدين والشرع، وكيف سيعقد عليهما القاضي وهما قاصران؟

أجابتها "سحر" كي تنقذها من حيرتها:

- سنفكر ماذا سنفعل ونسأل من يفتي لنا لعلنا نجمع قلبين يشعران بالاطمئنان في دنوهما من بعض.

طارت فرحا من ردها لها واعتقدت بأنها موافقة أو ستقف معها، وقفت منتصبة فرحا:

- سأخبر أم "سالم" يوم الخميس في اجتماع الأسر في حلقتنا الفنية.. أكيد ستطير فرحا، هذا إذا مسكت نفسها عن الزغاريد.

- بل أنا سأخبرها، أرجوكِ "سلوى"، كي أكبح هياج فرحها ساعة سماع الخبر... لا تأخذك الفرحة مأخذ الجد، أنا أحاول تقديم العون، وليطمئن قلبي بأني على صواب في الرفض.

لا أدري لماذا أصرت "سحر" على استكمال الكلام رغم غمزها "لسلوى" بتغيير وجهته.

قد تكون عزمت على مواجهتي الحقيقة كرجل قوي ولا تأخذني هكذا أمور إلى عدم مواجهة الواقع.

بدت الأمور ضبابية وغائمة أمامي، بتلك الآونة الحرجة ربما أرادت "سحر" أن أمسك بالخيط الذي يجعلني اتخذ القرار الحاسم.

يتفقون جميعا على الزواج.. ماذا عني أنا؟

أين البصيص الضئيل من الأمل؟

هل سأبقى أنشده في وجه "حمامة"، أم ابحث عنه في شيء آخر؟

أيصر الجرح على مصاحبتي، أم أجد أملا غير مجروح؟

تكالبت علي الأسئلة ولم أجد مخرجا منها إلا بالرسم والكتابة... لذا أدميت أصابعي كي تصارع القلم وتكبر على محنتها في تطويعه دون ارتعاش.

نتيجة إلى ذلك عشت اللحظات المشحونة بالخوف والإصرار.. إلى حد أنني أمزق كل ما رسمته وأبدأ بغيره متمنيا أن أجد فيه ضالتي.. قلت مرة:

- نعم.. الرسم.. هو صديقي.. فقررت رسم ما أحبه وأتمناه لي من هيأة وشكل ورغبة وحب وكره ونوم وركض وبكاء وفرح. وأدون أموري كلها في رحلتي هذه.

اتخاذ القرار صعب علي في بادئ الأمر خاصة وهم يظهرون أمامي تحمسهم لزواج "حمامة من سالم".. قاصدين إسماعي خطوات ذلك الاهتمام.

كرهتُ "سحر وسلوى" في البداية لكنني لم أستطع كره "حمامة".. ومع ذلك أحببتهما لأنهما أعطياني اتخاذ القرار.

اقترب يوم الخميس على عجل.. وبعد الرابعة عصرا ازدحم

صف الفن بالشابات والنساء والرجال.. لهم سحر البساطة وألق الانتماء إلى الإنسان فيهم وفينا.. أبهرتني الشابة ذات الصوت الجميل وهي تدندن أغنية ريفية.. كادت الأرض تنطق بصوتها والأنهار تمر من حنجرتها.

أوكلت "سحر" إلى مدرسة الموسيقى متابعتها فنيا وطلبت منها الاهتمام بها.. أما الرجل المرشح من قبل زوجته للغناء، كان صوته أقل عذوبة من صوت الفتاة، لكنه يجيد الغناء الريفي.

التحقا بمدرسة الموسيقى وبقيت "سحر" مع "سلوى" تختار الراغبات في التطريز والراغبات بعمل الحصر.

الموكل إليهن عمل الحصر قررن عدم المجيء في كل حصة، إنما كل أسبوعين مرة، فلسن بحاجة إلى إرشادهما بقدر حاجتهن للوقت.

أخبرتهم "سحر" عن ضيق الوقت:

- أمامنا شهران للاحتفال، وعلينا العمل بجدية ومواصلة التدريب، نريد حفلا مميزا وليس خيريا فقط..، بل هناك جوائز لكل عمل متقن، والأغاني لها دور من الأهل ومن المرضى القادرين على النطق، كما لدينا رسام ماهر وعليكم المبارزة لأن جائزة الرسم مغرية.

سنسعد أطفالنا بكل تأكيد.. ونحن جميعا سنشارك في صنع البهجة وخلقها.

همستْ في أذن أم "سالم" عن الخبر.. فنطت من مكانها فرحة وزغردت كما توقعت.. وضعت يدها على فمها لئلا تفزع النزلاء.. صمتت، وقادتها من يدها إلى الحديقة:

- ها.. قولي آنسة "سحر".. أخبريني التفاصيل بدقة.. قلبي يخفق بقوة بُنيتي... هل رأي الأطباء مقنع وعليه سنواصل جهدنا؟

قالت هذا وأسرعت إلى "حمامة" جذبتها مع "سالم" إلى الحديقة وراحت تمطرهما قبلا.. استخرجت من جيبها خاتما فضيا اشترته لكنتها وحبيبة ابنها ووضعته في أصبعها، لكنه جاء ضيقا.. فوعدتها بشراء آخر يوم الاثنين القادم في الجلسة الفنية.

تمسكت حمامة بالخاتم لأنها لا تعي بالضبط ما تقوله أم "سالم"، وترى أن الخاتم أصبح ملكها وأم "سالم" تريد انتزاعه منها.

نزولا عند رغبتها طلبت "سحر" إبقائه معها:

- دعيه معها الآن، واتركي وقتا لتقدمي فيه خاتم الخطوبة.. هل نسيتِ أنها ابنتنا وأنت ملزمة بمستلزمات العرس؟

حين مازحتها بقولها هذا دمعت عيناها واستمطرت أحلامها المستعصية.. حتى شغلت الوقت بالثياب التي ستختارها "لحمامة" وموعد الزواج، حيث رجت أن يكون في حفل الشهر الخامس كي تنتصر على الوقت وعلى وحدتها ومرض ابنها.

استمعت إليهما "سلوى" وأعربت عن رأيها:

- أم سالم.. الأطباء أجمعوا أن لا زواج إلا تحت رعاية تامة من الأسرة، وهذا لا يعني الموافقة التامة فوضعهما مقلق.

ضربت على صدرها:- أنا لها.. وهل توصيني بابني؟ ثم أن "حمامة" ستصبح ابنتي.

- نعم أنت صادقة، وأنا أشترط عليك أن يعمل "سالم" مع الفلاح و"حمامة" مع عاملة المطبخ في الدار.. كي يبقيان تحت إشراف الدار ويسترزقان من جهدهما، لا أريدهما أن يصبحا عالة عليك وأنت تكسبين رزقك من الحياكة والخياطة.

جلست على ركبتيها ترتجي منها الموافقة على الزواج.

- حاضر.. سألبي ما تشترطون علي.. وسأتقدم للمديرة

لخطبة" حمامة".. هل ستوافق؟ وهل ردك يعني أنتِ في صفي؟

- سأذهب معك وقتها ونطلب يدها معا، ربما ستوافق.

- لمَ لا نذهب الآن؟

- دعيني أرتب الأمر ليوم الاثنين ويصير خير.

خلا المكان من الجميع وعدنا إدراجنا إلى غرفنا والعنابر.

تضاعف الأسى علي، تدركُ ذلك "سحر" وليس بيدها غير مواساتي وإخراجي من محنتي..

لبست "حمامة" الخاتم في إصبعها الصغير واقتحمت خلوتي وانفرادي مع ذاتي لأكتب مذكراتي اليومية وأرسم.. هذه المرة لم تأت "سلوى"، لا أعرف لماذا لم ترافق "حمامة".. وبعد استفسارات توصلت إلى هروبها من "سلوى" لأنها أجبرتها على النوم.

دخلت "سحر" علينا فجأة، لكنها لم ترغب بوجود "حمامة" معي في الغرفة.. فاقتادتها إلى عنبر البنات المنغوليات وأدخلتها إلى فراشها وفردت الغطاء عليها لتنام.

أغمضتْ جفنيها إرضاء لها ووضعت إبهامها في فمها تمصه، هذه عادتها كلما رغبت في التعبير عن شيء، كانت عصبية وهي تمص الإبهام بقوة وتزبد.. انتظرتْ حتى هدأت، ثم رجعت إلي لتطمئن بأنني مازلت أكتب أو أرسم.

الرحلة العاشرة

تتألق الدمعة، كما قطرة ندى في حضن زهرة

أخذني الحماس إلى الكتابة نحوه.. كما مطر ينتظر ربيعا..، يشدني مرة وأشده مرات.. دون العثور على ما هو حقيقي ويمثل إلي وهجاً أعتصم به اعتصام المحتضر بالحياة.

ظهر لي "أحمد" فجأة في ندائي الداخلي، تمثل أمامي على شكل وجه تام الملامح.. عشتُ له بالتحديد لإيجابياته وسلبياته.. باعتداد نفس مرة، بخوف مرة.. في النهاية صرتُ لا أطيق لحظاتي بدونه.

ما عاد البقاء بمفردي والانطواء على الذات يحرقان وقتي ويحيلانه إلى رماد.. صارت الذات حوارا مستديما ونقاشات حادة ولينة بيني وبين "أحمد".. أصبح ملاذا وساحلا للرسوُّ إليه، وأصبح سمائي وأرضي، إليه أشكو وإليه وبه أستجير، ومعه استأنست الخلوة.. صبر علي وتحملني، ثم صبرتُ عليه وغرت منه غيرة التوأم من مثيله.

شبيه لي ولا يشبهني.. قريب مني وبعيد، حقيقة ماثلة أمامي أخاطبها، وحلم أتهيأ شكله وألوذ بطيشه.

سيطرتُ عليه تماماً... يجذبني إليه ليأخذني حيث عالمه،

وأشده إلي وقتما شئتُ، استسلم إلي كليا، ربما لهذا السبب كنت أبغضه وأحقد عليه لأنه سلبي أمامي.. حتى وقت يأخذني الحزن بعيدا يقف حائرا لا يفعل شيئا.. أشده من ملابسه ليقترب مني.. ليرفع عني ما يعذبني، يقف حيال ذلك كله صامتا.

ينتظر مني أمرا ليأخذني إلى دارهم.. هذا فقط ما يستطيع فعله.. الخروج من عالمي إلى عالمه.

لكن في الآونة ألخيرة بدأ يتمرد علي، يرفض، يتصرف بسلوك لا أحبه، يغار مني ومن قدرتي على الخلق.. ماذا أفعل له الآن؟ علي إيقاظه فقد غلبته إغفاءة قصيرة وعليه أن يكمل.

سحبتُ الغطاء عنه بلطف، فهذه حدود قدرة أصابعي.. زعق متململا:

- ماذا تريد؟ ألا تتركني أغفو قليلا؟ أنت متعب وممل يا "عنقود".. ممل لحد القرف.

تحملت دونيته وتوسلت استكمال الرحلة.. ثم واصلت إشارات التوضيح:

- قد ننشغل الليلة مع ضيوف "سحر"، لذا علينا انتهاز الفرصة الملائمة للقراءة.

نهض واثبا:

- متى اخلص منك ومن قرفك أيها الأعوج.

- بصوت أقوى قالها مرة ثانية:

- نعم أعوج وغير ملائم للحب، أنت لا يمكن أن تقترب منك فتاة، حدودك "حمامة".. حتى فتاتي "صفاء" استكثرتها علي ولم تتركها تأتي في اليوم الثاني للمعرض. من حقي أن أكره غرورك.

احمرت وجنتاه غيضا وأزبد.. مددت يدي على فمي وجدت

الزبَد عليه.. رفع يده ليصفعني، شعرت بيدي قريبة من خدي.. مسحت فمي وارتجيته الاستمرار:

- لم يبق من الوقت غير قليله يا "أحمد".. ولن أنتزع منك بعد اليوم الابتسامة أو الرضا.

انزلقت من شفتي كلمات غير واضحة (إن غدا لناظره قريب).

سمعني:

- سأكون شاكرا إليك إذا قضيت علي الآن، خذ روايتك لا أريدها، هي مأساة ليس إلا.

أعرف أنه سيفعل بمجرد أن يراني أفتح على الرحلة العاشرة.

طرقت الباب "سحر" ودخلت:

- هل تحتاج شيئا يا "أحمدي" الغالي؟

هل أجلب إليك الشاي؟ أترغب بحليب ساخن؟

همهمتُ بالإيجاب لكأس حليب ساخن، وافقت على الفور، ثم خرجت، بعدها نهرني أحمد:

- أما ترى أنك أناني جدا؟ لماذا لم تطلب شرابا باردا لي؟

أجبته مستهزأ:- هي تعرف بأنني لا أحب المثلجات والشراب البارد، لذلك لم تسألني عنه، سالت عن الساخن فقط.

سحب الرواية مثرثرا: أناني وسخيف. ولا فائدة تُرجى منك.

- لماذا اخترت يوم الاثنين لتقول كان يوما غير عاديا؟

لم أجبه وصمتُ مبتسما لشغفه بروايتي.

*

لم يكن يوم الاثنين عاديا، بل كان أكثر سرورا ومكاشفة ومصارحة. ولم تكن أم "سالم" بعينين باهتتين ووجه متعب، بل مشرقة كزهرة تترك ظلا شفافا على المكان.. جاءت وبيدها ثوبا

أحمر "لحمامة".. قالت أنه من صنع يدها، والقماش أصلا في خزانتها.. ولم تتكلف بمصاريفه، ثم استخرجت خاتما جديدا ووضعته في إصبع حمامة التي أغرقها الفرح.

طلبت من "سحر" الذهاب إلى المديرة كما وعدتها ولم تأبه للآخرين، فاستجابت لها على الفور ودخلتا غرفة المديرة بعد استئذان.. كانت متيقنة برفض المديرة.

رحبت بهما واختصرت عليهما الكلام:

- أم" سالم".. مهمتك صعبة ودقيقة، فأنت الآن مع اثنين معوقين هل ستكونين بقدر المسؤولية؟

أجابتها والفرحة تملأ محياها:

يرخص لأجل" سالم" كل شيء.. من لي غيره.

خرجتا والزغاريد تعلو سماء المكان من أم "سالم"، تجمع كثيرون حولهما مستفسرين. وقت أخبرتاهم بالخطبة.. امتعض بعض الأهالي من التصرف وبعضهم ترك المكان مستغربا ومحتجا.

قالت "سحر لأم سالم":

- يا سيدتي.. كلام المديرة لا يعني الموافقة، إنما وضعتك أمام المحك وأنت حرة.. أنا مثلها لا أرضى رغم محبتي "لحمامة وسالم"، ولأني أحبهما أدرك خطورة ذلك.

انشرح صدراهما لمشاهدة "حمامة" واقفة أمام مرآة غرفة "سحر" تعاين نفسها و"سالم" يقف قربها.. يزم فمه، ثم يدنو منها يشم رقبتها فيسل الريال على سلسلة حمامة.

مقابل الفرحة ألم وسماء رمادية قاسية.. وشخص يلزمه أصوات العالم كله ليصرخ صرخة تعيد له أمله الضائع.

كل ما يحيط بنا يبدو مجنونا لي.. تشرق الشمس من جانب

وتغرب من جانب آخر.. في غمرة فرحي "بحمامة" أشعر بغيرة كبيرة.

بدأ جسدي يهزل يوما بعد يوم، وبعد كل هدية "لحمامة" يصيبني الإسهال والتقيؤ والرفض من تناول الدواء.. "وسحر "حائرة حيال رفضي وتتوقع أنني أقتل نفسي بطيئا.

كيف لي أن أقابل الفرح بالحزن وأخلطهما معا، أجرع كأسيهما وأتمايل سكرا بوجعي... اليأس من حمامتي يدب دبيب السم في روحي، والواقع يفرض علي مسايرته.

"سلوى" فرحة وتفكر بالعرس وملابسه وتتخيل حمامة بثوبها الأبيض والطرحة و"سالم" بالبزة السوداء الجميلة.. وتستعيد من النسيان لحظاته المورقة.

لا أدري لمَ تفعل ذلك؟ رغم علمها بموقف "سحر" وموقف المديرة والطبيب النفسي.. هل لأم "سالم" تأثير قوي على "سلوى" إلى هذا الحد؟

عندما تسألها "سحر" تبتسم وتتركها دون جواب.

أخذوا يستعدون للحفل الخيري والمهرجان، والعرس يشغل "سلوى" أكثر، مثل شراء الخاتم والثياب والزينة والعطر..، يجب إحضاره قبل كل الحاجيات وإلا ستغتاظ حمامة.

وضعتْ "سحر سلوى" أمام العقبة الكبرى:

- أي قاض سيعقد قران مخبولين؟

ابتلاها الصمت وقتها وكأنها لم تعرف أنهما قاصران:

أجابتها ويدها على قلبها كي تخرجها من صمتها:

- غدا استأذن من المديرة لأخذ مشورة محامي.

خرجت "سحر" باكرا إلى مديرية الشرطة تسأل المدير عن

أقرب محكمة لقريتنا.. وعن مكتب محام، هو يعرفها من خلال زياراته للدار وللمديرة، لذا استقبلها بحفاوة مرحبا:

- بماذا أخدمك سيدتي الجميلة؟

- أجابته:

- أريد محكمة لعقد قران أثنين من نزلاء الدار.

ضحك بأعلى صوته حتى أدمعت عيناه.. وشهق، ثم عاود سؤاله:

- ماذا قلتِ نزلاء الدار؟ يعني معاقين أو بُله؟

هل ستزوجين أبلها؟

وقفت ثائرة:

- بل قل إنسانا وليس أبلها، ومن حقه علينا مشاركته الحياة.. الآن أخبرني كيف أصل لمحكمة قريبة، أم محامي أستشيره.

- المحكمة في المدينة وليست هنا، لي صديق يعمل في المحكمة الشرعية، ارجعي وسأحجز موعدا وأخبرك عبر الهاتف.

شكرته لمساعدته ومساهمته في تقديم الخدمة.

في اليوم الثاني اتصل مدير الشرطة يخبرها بموعد المحكمة، وأكد عليها أخذ العروسين معها لأنه غير متأكد من موافقة القاضي.. شكرته وأخبرت المديرة بما حدث، وبالأخص موعد الذهاب إلى المحكمة بعد ثلاثة أيام.

لكن المديرة فاجأتها قائلة:

- الم تفكري يا "سحر" بأن القاصر لا يعقد عليها القاضي إلا بحضور ولي الأمر؟ من أين نأتي بولي أمر "لحمامة" وهي المولودة في الدار ولم تر أباها المتوفى في الحرب.. ووفاة أمها في الولادة؟

- طيب سيدة فضيلة.. سالم هل له ولي أمر؟

- علينا أن نسال أمه، لابد من ولي أمر، هذا إذا وافق القاضي أصلا.

أكدت القول بأنها ستذهب إلى المحكمة في الموعد المحدد وسترى ما يطلبه القاضي منها.. ثم ستستعين بالأستاذ "جميل."

- مَن الأستاذ "جميل"؟

- ، أتذهبين لوحدك مع معوقَين؟

لا لن اسمح بذلك.. خذي معك أم "سالم".

وعدتْها بتنفيذ ما طلبت، وعادت إلى "سلوى" متأثرة خوفا من رفض القاضي فعلا.، أخبرتها عن أبيها الروحي واستعداده لتقديم المشورة والمساعدة في أي وقت.

رأيتُهم مثل أطفال يلعبون لعبة لا يدرون أين نهايتها، ربما يبغون الارتماء في أحضان أمهاتهم ليعرفوا أين المسار.

إذا كانوا أطفالا فماذا يسمون "حمامة وسالم"؟ يا ربي لا تأخذ بيدهم

وتدعهم ينتصرون علي.

لماذا تتبعهم "سحر" وهي رافضة الموضوع أساسا؟

ذهبت مع أم "سالم" على الموعد باليوم والساعة بالضبط، حاملتين وجلهما وقلقهما.. ما أن دخلتا على القاضي وسأل عن العروسين زعق بهما وصرخ بحارس المحكمة أن يأخذها بعيدا عن القاعة:

- خذ هاتين المجنونتين بمجنونيهما بعيدا عني.. ثم وجه الكلام إلى سحر:

- يبدو عليكِ إنسانة متعلمة.. سيدتي أرفض هكذا زيجة، وهي غير موفقة حتما.

- ولماذا الحتمية سيدي الفاضل، هل هناك نص في الدين يمنع زواج المعاق عقليا ومنها المنغولي؟

طلب منها عدم الخوض في ذلك:

- لا أريد زواجا يصيب المبتلى ببلاء آخر، هكذا أكون ساهمت بخلق عالة جديدة على المجتمع.. ثم لا يتم عقد دون حضور أولياء أمور المعاقين.

- والله سيدي اسمح لي:

إعاقة القلب والضمير أشد وأخطر من الإعاقة العقلية والبدنية.. كن بخير وأرجو أن تراجع نفسك وتستثني قرارك لأني سأحجز موعدا آخر.

في استعلامات المحكمة سألت الكاتب فيما إذا هناك قاض غير هذا.. أجابها: - حاليا لا، فقط هذا القاضي.

- حسنا.. احجز لي موعدا قريبا.

- هل يوافقكِ بعد شهر؟

- لا بأس.

رجعتا تجران خيبتهما.. كانت تعرف أنها ستلاقي عقبات، لكنها مصرة على إسعادهما ولن تتراجع أو تتخاذل.

نسيت "سحر" ابنها "عنقود" صبت جل اهتمامها على "سالم".

أليس هذا ظلما آخرا؟

قررتْ الإطلاع على القانون الخاص بالمعاقين بعد استشارة محامي في المدينة أخذها إليه أستاذها وأبوها الروحي الأستاذ

"جميل". كما زودها بمحاضرات لأطباء حول المعاقين ومقدرتهم الجنسية في الزواج.. وكذلك بحث معها أستاذها عن رأي الشرع والدين، وما ينص على أن يكون المعاق ضمن المجتمع وله حق في حياة عادية مثل الأسوياء.

جمعت ملفا كبيرا بهذا الخصوص لتكون قوية أمام القاضي، إنما الصعوبة الكبرى التي واجهتها هي أولياء أمور الاثنين، "سالم وحمامة".

سالتْ أم "سالم" فيما إذا "لسالم" عم أوجد ينوب عن أبيه، أجابتها بالنفي:

- ليس لنا أحد وأنا عندي حكم سابق من المحكمة بوصايتي على ابني لأن لا أحد لدينا وأنا أعيله وأقوم بكل شيء.

- ربما هذا الحكم سيفيدنا ويقبل بك القاضي قيِّمة عليه فيوافق لتكونين نيابة عن أبي "سالم".. مشكلتنا الآن هي حمامة.

في الليل اشتد الإسهال علي والتقيؤ، مما اضطرهم لنقلي إلى المستشفى لأخذ محلول المغذي في الوريد، تعويضا لجسدي ممّا خسره.

ذهبت سحر معي لأنني لا أريد أحدا غيرها.. صعدنا سيارة الإسعاف والعرق يتصبب من جبيني وجبينها خوفا علي.. أما أنا فقد التصقت بطني في ظهري، خفت صوتي واختل نبض وريدي.

أدخلوني مسرعين إلى الغرفة الخاصة بالإنعاش، فحصني الطبيب وأمر لي محلول المغذي في الوريد مع إضافة الدواء المخفف للإسهال والقيء.

بقينا أربع ساعات حتى هدأت حالتي ونقلوني بسيارة الإسعاف إلى الدار فجرا.

أخبرها الطبيب عن خطورة استمرار الإسهال ولابد من إرغامي

على الدواء لان وزني يتراجع وبنيتي ضعيفة جدا.

رفضت النظر إليها هذا المساء، وكلما اقتربت مني أغمضت عيني، علما أنني أريدها قربي لأحتمي بصدرها.

كم عاتبتها في سري ولمتها، وكم غضبت عليها ثم رضخت بعد ذلك للرضا عنها.

هل يمكن للمرء أن يحب ويكره في ذات الوقت؟

أمن الضرورة أن أتحمل أنا كل هذه القسوة؟

استقرت حالتي الجسدية بينما النفسية شديدة التوتر.

لم تصح مبكرا لمزاولة عملها لولا دخول سلوى عليها وشدها الوسادة والغطاء عنها.

أسرعتْ إلى غرفة المديرة تتبعها "سلوى" متسائلة عن ولي أمر "لحمامة"..جاهدت المديرة في التفكير معهما:

- أظن المحكمة لن توافق لكوني امرأة، ولا أدري بصراحة ما العمل.

سألتها "سلوى"فيما إذا طلبتها المحكمة هل ستحضر لتُعرف عن وضع "حمامة"؟

لابد أن تخبري القاضي بالإثباتات عن أسرتها خاصة أن أمها ماتت هنا في الدار ساعة ولادتها، ولديك أوراق قبولها عاملة دائمة مأواها الدار.

أجابت بنعم بعد تردد وإلحاح منها:

- أنتما تجرانني إلى ما لا أريد..سأحضر إذا اقتضى الأمر حضوري.

جاءت نتائج اللقاءات الفنية الأسرية مثمرة والحصيلة من الأعمال أدهشتهم.

وكلما اقترب موعد المحكمة، كلما ازدادوا حيرة من ناحية ولي الأمر.

أصابت الحيرة أم "سالم" فلا أحد يوصلها إلى من ينوب عن زوجها في المحكمة.

حضرت إلى الدار من غير عادة وسألت إذا كان ممكنا اللجوء إلى مختار القرية، فهو يعرفهم جيدا ويعرف أبا "سالم" ويوم وفاته وولادة "سالم".. كل أمور الأسر يعرفها المختار.

وعدتها "سحر" بالاستفسار من محامي ثاني زيادة في التأكيد، وفي هذه الحالة ستتصل بالدكتور "محمود" ربما لديه صديق محامي.

اتصلت "بمحمود" ولبى طلبها في الاتصال بصديق له ويأتيها بالخبر اليقين غدا.

أكدت على أم "سالم" جلب شهادة ميلاد ابنها وجنسيته وشهادة وفاة أبيه وسترى ما سيفعل المختار وقتها.. سيذهبون جميعا مع المديرة لئلا تبقى بين يدي للقاضي فرصة للتراجع.

جاءها الخبر من "محمود" بأن القاضي ممكن أن يكون ولي أمر "حمامة".. ولو وافق ينوب عنهما الاثنين.

أفرحها الخبر: - سنرى بعد شهر حسب موعد المحكمة.

"سالم" لديه شعور بأن ما يقومون به لأجله ولأجل "حمامة"، وأنهم سيقربون بينهما، لذلك كان الفرح يتدفق من وجهه كالشمس.. تبسم شمسه وتغيب حسب حالة الوعي.. أما "حمامة" فيسرها الثوب الجديد والسلسة والخاتم ويد "سالم" بيدها، هذه كل دنياها، وأيضا العطر.

حين نذهب إلى غرفة الموسيقى تصر على إفراغ العطر على

جسدها وثيابها لذلك كانت مهمة "سلوى وأم سالم" الإكثار من هدايا العطر.

كم تمنيت أن تأخذني أمي بين ذراعيها، والآن بالذات لا أدري لماذا.. ربما وضعي المحزن جعل هذا الشعور يسيطر علي. أحلم معها بالأشجار والأطيار والناس.. أحلم بحياة لا يعرفها غير الله، ما الذي ستقوله أمي ساعتها؟ أين هي الآن مني؟

هل يدخل الهواء رئتها كالآخرين؟

رغبت "سحر" إيصال فكرة الزواج إلى "حمامة" لعلها تدري شيئا عن حياتها القادمة.. وضعت يدها على صدر "سالم" جهة القلب، ومثلها فعلت مع "سالم".. كانا مثل بيضة تكسرت للتو وخرج منها عصفور بلونه الأصفر.

تدفقت أجنحتهما بألوان الطيف وابتسما لبعضهما، الأيدي رغم قصرها استطالت لتحتضن كل ما حولها وتصبح سرورا مزهرا وكأنهما المخلوقان الوحيدان في دنيا جديدة.

سيكون أعظم ألم لها، لو خسرتني بسببهما.. وأعظم ألم حين أبقى وحدي بتعاظم الفقد.. لماذا لن يبالي الناس في الاهتمام بالقلوب المتعبة.

الابتسامة البلهاء حين تعبَّر عن حب جميل تصبح أجمل وأنقى من طهر العالم كله.. هكذا بدا لي هذان العاشقان وتعبيراتهما الممتلئة بلها وريالا.. لساناهما الممتدان إلى أسفل حنكيهما.. أصابعهما القصيرة المتشابكة تثير فضول الآخرين ليقفوا عندهما... كانا يضحكان بفرح، تحمر وجناتهما كلما اقترابا.. إنها حاجة الجسد والقلب معا.. لا أدري هل يقف العقل هنا حائرا أم ينسيانه كما نسيهما.

وهل علي الوقوف في صفهما وأنا العاشق الخسران؟

(كم تمنيت أن أعيد خارطة قلوب العالم خاصة الجبارين منهم وأضع محلها هاتين الضحكتين البريئتين.. لتنظر إليهما تلك القلوب بعين القلب وليس بالعين المجردة. عين الاستخفاف والاستهزاء والشفقة).

حين كتبت هذه الجمل استغربت من موقفي.. أيعقل هذا مني؟

بين الطيبة والغيرة هوة كبيرة.. كما هي بيني وبين "حمامة" وعلي الخروج من هذا المأزق... هكذا يجب أن أكون.

كنت أتحدى الأبوين والآن علي تحدٍ جديد.. يا لقسوة القدر يا "أحمد" أي إنسان أنت.

بدأتُ أتحول إلى جثة هامدة، وذوي عودي النحيل من الأصل.. كيف أتقبل نحول العشق، وأنا أرى من أحببتها تضع يدها بيد غيري، وأعرف أن لا رجاء.

أصعب شيء على الإنسان معرفة موعد موته.. والأصعب على شاب يعرف أنه غير صالح للحب والزواج، يتحرك فيه القلب والجسد والصمود والتحدي.

كنت حين أشيح بوجهي عنها وأديره إلى الحائط أخفي دموعي وكبريائي، فيتقرفص جسدي ويبقى مؤخرة صغيرة محشوة في حافظة، وركبتان صغيرتان ملتويتان.لا تُسمع مني إلا أنفاس الأنين، و"سحر" لا حيلة لها في إسعاد قلبي، رغم تشجيعها لفني وشعري لكنني في بادئ الأمر لا أرى سعادتي في هاتين الموهبتين.

كظيم وكتوم حتى إن غضبت لا أظهر مني غير سني أعظ شفتي السفلى به حتى أدميها.

ترتعش رقبتي ساعة الحزن ولا تقوى على حمل رأس بحجم بطيخة، فيميل الرأس منحنيا مما يجعلها تسرع في وضعه على

الوسادة، أعاندها، أدير ظهري إليها خشية رؤية رجولتي الدامعة.

في حالات كثيرة التزم الصمت حتى أخرج من حرقة قلبي وأكلمها وجها لوجه.. وأفسر سبب رفضي الدواء.

عليَّ منذ الآن فرد أذرعي باتجاه آخر.. واضعا بيدي غدي وبالأخرى ماض أجبره ليصبح حقلي القادم ويختصر كل مسافاتي.

سأكون غير الناس العاديين، الذين يأكلون ويشربون بملاعق وبأيديهم يتلقفون الفواكه.. يدي مختلفة عنهم... فيها قطرات ماء من سماء الله.

الرحلة الحادية عشرة

سأكون الهواء الرقيق الذي
يحرك الشمعة، وأتمايل بين جفنيّ الحياة

كلما كتبتُ عبارة أو اتضحت ملامح "أحمد" في الرسم.. كلما وقف الآخر فيَّ مذهولا.. ماذا سأجني وراء ذلك!

الشخص الآخر الكامن في أعماقي.. يقول لي:

- حان الوقت، هيا نواجه واقعنا.

يا له من ازدواج بشخصي.. أحدث الآخر وأصوره وأعيش معه، يحاورني، ينهرني.. يبكي معي، يصبح وقحا لئيما.. وأنصت لقلبه.

من مميزات الشخص القادر أنه قوي بدون ألم ووجل.. كيف لضعيف ناحل مثلي أن يصبح هذا الشخص؟

المعادلة صعبة يا "أحمد".. إما أن تواجه، أو... لا سأواجه دون هذه الـ "أو" وأحتشد فيك.

انخرطتُ في كتابة مذكراتي يوما بيوم بدقة..، وبالرسم، ومساعدة "سحر" والمعلم الفنان وصلت.. قبل وصولي مزقت وبكيت قرب أوراقي ودفاتري. القلم الأسود ضحك مني واستهزأ كثيرا.. البياض على الورق شجعني وأعطى أناملي شحنة ودفق انفعال فني.

لم أخضع فني وأدبي لقوالب أو شروط.. إنما لشروطي الخاصة، إلى الإنسان بداخلي وعوالمه.. مستفيدا حتى من دخول حشرة إلى غرفتي.. أتطلع إلى زحفها على الحائط.. أترقب النمل في التقاطه نتف الخبز... لا يعرف قيمة الكتابة إلا دموع الحواس.

الصحف والإعلام والتاريخ الأدبي والفني سيذكرون جهدي.. وبقدر ما أخذ الله مني أعطاني.

شكرت ربي وحمدته على نعمته، كيف يهب من تخلت عنه أمه ونسيه أبوه صفة الوصول إلى قلوب الكثير وإعجابهم.

فتحت "سحر" حقيبة ملابسي واستخرجت منها بزة اختارتها لي وأخذتني إلى الحمام للاغتسال والاستعداد.. حان وقت الضيوف.

كان "أحمد" يراقبني في احتساء الشاي، ويراقب "سحر" كيف تُنزع ملابسي برفق وتقبل جبيني بحب، ويمتعض منها اللعين لأنها لا تراه ولا تشعر بوجوده.

تركته في السرير وأخرجتني إلى الصالة.. كان "محمود" جالسا يقرأ الصحيفة اليومية ويحتسي قهوته.. فرحت أساريره حين رآني بكامل هندامي الجميل وقيافتي:

- هاهي صورك تملأ الصحف اليوم أيضا. جلست "سحر" قربي:

- وغدا أيضا يا ""محمود.. غدا يوم الختام وسيحضر جمهور أكثر من اليومين السابقين.

فيما نحن فيه خرج "أحمد" مرتديا نفس الملابس خاصتي.. أعجبتُ بقيافته ووسامته وطوله الفارع، وسحر القميص الأزرق على وجه.. جلس على الأريكة قرب محمود وأخذ ينظر إلى صوري في الجريدة.

في الإثناء ذاته رن جرس الباب، وإذا بصحفي ومصور وفتاة جميلة ترافقهما.

رحبا بهم "سحر ومحمود" وجلسنا جميعا نتبادل النظرات. تبين لي أن الفتاة مترجمة كلام الإشارة.. والصحفي يريد عمل لقاء معي.. طلبت منه "سحر" عدم الإكثار من الأسئلة بسبب وضعي الصحي.. امتثل لأمرها وأمطرني بالأسئلة.

كنت أجيب والفتاة تترجم، و"سحر" ترفع رأسها إعجابا بقدرتي في ردود مقتضبة وقيمة.

لم تتصور أنني بهذه اللباقة واللياقة في الحديث.

التقطوا لي صورا بأوضاع مختلفة حتى إثناء حديثي وإشارات أصابعي. و"أحمد" يحاول جاهدا لفت الانتباه إليه لكن دون جدوى.

خرجوا جميعا بعد تناول المرطبات والكيك مع الشاي ثم استدرك الصحفي قائلا "لمحمود":

- غدا سينزل اللقاء في مجلة " الثقافة للجميع".

كانت ليلة مميزة فعلا، تملكني شعور النصر، وهيبة القوة الوصول إلى ما لم يكن بحسبان أبي.

لم تكن لي رغبة في العشاء رغم إلحاح "سحر ومحمود" على ذلك.. لكنني رغبت الرجوع إلى السرير.. حتى الفرح يتعبني ويسبب لي جهدا بالغا في كل أعضائي.

رأيت "أحمد" يدخل قبلي، يأخذ وسادة أخرى ويضعها تحت رأسه استعدادا للقراءة بحماس لم أعهده عليه من ذي قبل.

كان متماسكا جدا لم يعرني اهتمامه، بل بدت عليه علامات التوجس مني

ومن الرحلة الأخيرة في الرواية.

نظر إلي بنظرة غريبة:

- زيادة عدد الزبائن والمشجعين المهتمين بالأدب والفن غدا ستُنسيك أحمد رفيقك.

منذ اللحظة رأيته مختلفا، سألته:

- ما بك يا أحمد؟

قال:

- ألم تفكر بمفترق الطريق؟

ما عاد باستطاعتنا المضي بهذه المتاهة.. علي أن أؤمن وأقر بأننا شارفنا على النهاية.

مسحت شفتي بأصابعي أحركها لتقوى على البوح:

- لا بد من النهاية يا رفيقي المشاكس.. نعم صدقت لم يعد باستطاعتنا المضي بهذه الخدعة الكلامية.. كلانا أحمد، وكلانا ظاهر ومجهول.

سنكمل الرحلة الأخيرة ونلتقي ليلة الغد.. ثم أنت حر إن رغبت البقاء معي أو رفضت. سأترك حرية الاختيار لرغبتك.

فتحتُ الرواية على الرحلة الحادية عشرة.

*

ليس غريبا أن تنسى الاستفسار عن نتائج جهود الحفل، وهل أثمرت أم لا.

لكن الغريب أنها لم تبك الليلة، هبطت عليها قوى غريبة.. ربما شدة الألم تبطن البسالة.. أو الخوف من حدث شي متوقع يمدنا بالقوة والسهر.

أو قد يكون التعب المستمر مني أثقل على كاهلها ومتابعتي احتاجت منها جهدا فوق العادة.

تسللت إلى غرفة "سلوى" فراتها تغط بنوم عميق. لم تستطلع وضع المديرة لكنها على يقين بأنها تشخر من كاهل يوم مليء بالنشاط والمفاجآت.

لم أشاركهم الحفل.. ولم أعرف الفائزين منهم.

لكن ما حدث في تلك ليلة حدث كما التي قبلها، وصحتي باتت تسبب قلقا للجميع.

لستُ عالة ولا أريد أن أكون العالة فعلا.. فعلام المرض خبيث إلى هذا الحد؟

عند الغداء لم أرغب بمشاركتهم المائدة، وتعذرتُ عن الخروج بصمتي المعروف.. توسعت ابتسامتي في دخول "حمامة" المفاجئ إلى غرفتي بيدها وردة حمراء ولحق بها "سالم" بوردة تشبهها، كانت "سلوى" هي مصدر هذه الالتفاتة لأنها أيضا قدمت باقة من زهور الحديقة، فعبقت الرائحة في الغرفة وتسللت إلى روحي، لذلك وافقت على شرب الحساء الذي جلبته معها من المطبخ.

طلبتُ من "سحر" أن تقص علي حكاية تريح القلب.. أذعنت لأمري وشرعت تحكي والجميع مصغ إليها إلا "حمامة" المشغولة بخاتمها الفضي. تلعقه بين الحين والحين.

"سالم" مشغول بنا جميعا ينقل بصره بوجوهنا لا أدري هل يتساءل أم ينظر باحثا عن ثمة كلمة.. نظراته لا تدل على أي شيء.

وأنا أصغي بروحي إليها.. وأخصها بنظراتي المعجبة بقوتها وتحملها على مسؤوليات كثيرة، خاصة حين اسرق من الوقت لحظات وأراقب عينيها الجميلتين.

شربت الحساء كله وبانت على وجهي ملامح العافية، ثم طلبتُ قدح العصير لأتناوله.. شربت نصفه وسال النصف الآخر

على ملابسي بسبب سرعتي ولهفة فرحي بصحة تخللت بدني.

وكمن يصحو على غفلة من آمال هزيلة انفرد ظهري بنفسه وترك وجهي منفيا في النافذة.. أرتكب هذا المنفى كلما اقتربت من تعاستي.

رجت "سحر من سلوى" أن تأخذهما خارجا وتتركها معي:

- بالله أخبرني.. أي عذاب تقترفه تجاه نفسك؟

هل تشعر بعذوبة البكاء والعويل؟ ابكِ لو رغبت البكاء ولا تترك الصمت يأكلك.

أنت تقتل نفسك وتقتلني معك.. أشقى منك وعليك.. هذا كثير علي.. هل تتصور الراتب الذي أتقاضاه من أجلك يكفي تعبي وتحملي تصرفك؟

أنا لم أفكر بك إلا صديقا قويا وفنانا كبيرا، فلا تظلم نفسك وتظلمني معك.. لقد تعست في حياتي بما يجعلني أشيخ قبل الوقت.

راحت تدور في الغرفة وتكلمني يصوت عال:

- أنظر.. أنظر أيها الفنان الذي يأبى على نفسه الفرح.. كم الحياة جميلة وبمقدورك اكتشاف جمال غير مكتشف بعد فيها.

ما رأيك لو أتصل بدكتور "محمود" وأساله عن صديقه الفنان وإمكانية مشاركتك في معرض العاصمة معه.

لا تصمت أرجوك أشر ولو مرة واحدة بنعم تسبق الصمت... والدك ثري وعلي الاتصال به هو الآخر.. نعم سأتصل به لنعمل معرضا كبيرا تستحقه، وسأتفق مع فنان يعطيك دروسا خاصة بالرسم، سيدفع أبوك، يستطيع حتى شراء صالة العرض لنا.. لمِ لا.. ونصف ثروته على الغانيات.

تخيلتُ كيف ستكون الحياة بدون فرح، والكتابة بدون أصابع كيف ستكون.

هل سأكتب فعلا بإشارات وأرسم؟ أم أبقى محبطا أفكر في المحنة ومأزقها؟

شكرا يا ملامحي الجديدة.. ملأني لطفكِ حبورا وابتساما جميلا.

صديقي القلم.. كم تسعدني مرافقتك لي.. لنبذل مزيدا من الجهد، مازال لدينا

الكثير من السعادة.. كل شيء سيمضي، الفرح والحزن، كل شيء، إلا الإبداع يفتح ذراعيه لنا ليهبنا ديمومته.

لا أدري كيف طرأت لها فكرة المرسم الخاص، ومن أين جاءت بها، لكن يبدو أن ساعة الانفعال تكرمت عليها..، صمتت هي الأخرى لتفكر بجدية.

راقبت سكنات ملامحي وهياجها وكل انفعالاتي لأنها صارت تعرفها جيدا، وأتقنت لغتها... كان كل عضو فيَّ يرتجف فرحا وانفعالا.. ربما تأييدا لفكرتها.

سألتني:

- سأحتسي كوبا من الشاي، هل أجلب إليك واحدا؟ شاي بالحليب أليس كذلك؟

وافقتُ بإيماءة من رأسي.

قضينا مساء لذيذا تحدثنا فيه عن موهبتي والتحدي لكل الصعاب لأكون فنانا لامعا، فأنا موهوب ولابد من ترك بصمتي على جدار الحياة.

مع ذلك كانت تراني أحترق كلما مرت "حمامة مع سالم"، وكلما شاهدت "سلوى" تهتم بهما وتتحدث مع أم "سالم" عن

مراسيم احتفال الزواج، ومحاولة البحث عن قاض جديد في العاصمة أو أية مدينة قريبة من قريتنا.

فاتحت المديرة بفكرة التكثيف الفني على "أحمد" والاتصال بمحمود، أيدتها خاصة أنها تعرف أبي وإمكانيته المادية واستعداده أيضا لتقديم العون لابنه. العون المادي لأنه يريحه من رؤية شكلي، ولا يعرقل نزواته وسفراته.

قالت لها المديرة:

- أتركي أمر أبا "أحمد" علي سأكلمه أنا، أعرف أنه لن يبخل، لكن فقط أخبريني بماذا تفكرين بالتحديد وكيفية تحويل الفكرة إلى واقع؟

فرحت لمشاركتها الرأي:

- إذا.. سيدتي، سأتصل أنا بدكتور "محمود" وأتفق معه على مساعدتنا في تكليف صديقه الفنان بهذه المهمة.. ونعمل ما بوسعنا، أنا مستعدة سيدتي لأن "أحمد" فنان ولابد من الوقوف إلى جانبه.

لن يكون هناك فراغ في حياة "أحمد" بعد الآن، سنملؤها شغلا ورسما وغناء.

كان هذا رد دكتور "محمود" عليها عندما اتصلت وأضاف:

- لعلني أراك أكثر غاليتي "سحر".. سأرافق صديقي الفنان "علي" بعد أسبوع ونأتي معا، إلى لقاء قريب.

تدثرنا بزهور البهجة هذا اليوم.. أول مرة أرى "أحمد" الذي بداخلي يبتسم ابتسامة مختلفة.. وكأنما رنين شفاف يدخل أذني أو أغنية قادمة من السماء.

طلب الفنان "علي "أن يعمل لي النجار طاولة خاصة قصيرة ورافعة اللوحات تكون بأرجل قصيرة لتسهل عملية الرسم علي.

كانوا يردون على كل الطلبات بالموافقة.. لا يترددون، وأنا منصت بكل جوارحي إلى شرح الأستاذ "علي" عن مزج الألوان.. ويسمعني أخبار بعض الفنانين.. كما قدم لي كتبا تثقيفية بهذا الخصوص، عن الألوان والفن والفنانين.. وأخبرني أن أختار أنا عناوين رسوماتي لا يفرضها علي أحد. وأكد أنه سيزورني كل نهاية أسبوع.

أوصلت سحر فكرة دفع الأجور "لمحمود"، على أن تدفعها المديرة من والدي.

تناولنا الغداء معا، أنا والمديرة و"سلوى وحمامة"، تأخر "سالم" عن الغداء، ليس من عادته ذلك، وعندما سالت عنه "سحر" أخبرتها "سلوى" أنه أصيب ببرد خفيف، أوصته بملازمة الفراش والغداء يصل إليه.

قبل التوديع صافحني الفنان "علي" لما رآه من تقدم في لوحاتي الجديدة، وأنني موهبة كبيرة:

- في الشتاء.. وإن كانت الريح هوجاء.. هناك زهور بهية تعطينا الجمال الدافئ.

رفعت سبابتي وكتبت في الهواء "الجمال الدافئ".

عينا "محمود" تخترقان "سحر" حتى وهو يحدثها في مواضيع عامة.. تعيش على اختراقها في غيابه وتسترجع لمعانهما.. تفكر كيف ستكون جاهزة لإعطائه حياتها، ولمن تتركني، وهل سينصفني أبي لو عدتُ إليه، وكيف ستمر الأيام القادمة، وبأي شكل سيصبح المستقبل؟

صرت أقضي أكثر الوقت في المرسم، بين ألواني وصمتي، أقتنص الفراغ وأخلق منه وقتا إضافيا لثمة فكرة تطرأ على بالي.. شغلتها معي.. وأحبتْ بعض الأوقات وملَّتْ من بعضها.. وأنا لا

أمل ولا أتعب، ولو شعرت بالإعياء أؤشر لطلب عصير ثم أطلب لأخذي في نزهة لشم الهواء في حديقة الدار.

أنتظر يوم قدوم الفنان "علي" بفارغ الصبر وأستغرق في الشرح والكلام والتلوين.

تُهيئ لي "سحر" وضعي الجسدي، ملابسي حفاظي الواقي، وألواني.. وفي الليل أستخرج قلم الرصاص وأضع أفكاري على الورق.. أواصل رسم "أحمد" أستعذب الصورة، أتلفها مرات ومرات أعيد تنفيذها باللون المائي، تلك الأفكار الغريبة والجميلة في ذات الوقت.

أحب الألوان المائية أكثر من الزيتية.. بعض اللوحات أصر على تلوينها بالزيت.. خاصة التي جعلتها عيونا بنظرات مختلفة... عيون تحدق باتجاه واحد.. ولوحة فيها عينان لا غير.. عينان مضمومتان إلى بعضهما، قريبتان كأنهما تبصران من زاوية واحدة لبعضهما.

أعجب الفنان "علي" بموهبتي إلى درجة التبني فنيا.

كنتُ أمسك الفرشاة بيدي الاثنتين، لضعف أصابعي وقت يرهقني الإعياء.

لم أعد أتألم من رؤية "حمامة" برفقة "سالم".. أصبح الرسم هو حمامتي.. أغضب وأصب غضبي على الورق أو القماش.. أو بقلم الفحم على ورقي الأبيض.. أفضل الرسم باللون الأسود دائما.

لم تبق الأمور كما هي.. اختلفت اختلافا جذريا.. لم أفز بقلب حمامة لكنني فزت بقلوبهم جميعا، وبالأخص قلب الفنان "علي".. القلب الجديد على حبي مثلهم.

كان يقول لهم:

- هذا الشاب يملك قوة خاصة لاختراقنا.. ليس فنه أو تعلمه السريع وحبه للغناء، بل لديه قوة الوصول إلى شغاف القلوب.

اخذ الزمن منه صحته وأعطاه الذكاء، والفن ورقة القلب وحب الجميع.

ذات زيارة من الفنان "علي والدكتور محمود".. تحدد موعد المعرض في المدينة.. الموعد بعد ثلاثة أشهر وعليَّ زيادة الجهد.

فكرة زيارة المرسم ورؤيته عن قرب كانت فكرة الفنان "علي" وقال لنجعلها في الأسبوع القادم لأحتفي بكما أنت و"أحمد".. ومنها يتعرف "أحمد" على باقي الفنانين ويتواصل معهم للاستفادة من تجاربهم.

تبرع "محمود" بأخذنا ولا حاجة لاستئجار سيارة، فوافقت "سحر " على الفور بعد استشارة المديرة.

لم تمانع المديرة.. ورغبت "سلوى" بالمجيء معنا لتكون لها فرصة الذهاب لمحكمة في العاصمة، وحجز موعد فيها لعل القاضي هناك سيقف بصف فكرة زواج "سالم وحمامة".

نهاية الأسبوع فكرة رائعة لنا جميعا.. صعدنا السيارة لكن بدون "حمامة وسالم" هذه المرة.. وأم "سالم" أوصت "سلوى" قبل السفر بيوم أن تكون بحجم المهمة وتأخذ الموضوع موضع الجد... طلبت "حمامة" شراء خاتم جميل أو فستان من العاصمة.

كان يوما استثنائيا.. مررنا بشوارع العاصمة وبناياتها العالية ومحلاتها الزاهية، لم تكن بعيدة عن مدينة "سحر "سابقا، . مدينة الجمال واليتم وحياتها البكر بأكثر من ثلاث ساعات... أهابني في العاصمة الازدحام وحركة الناس السريعة وكأنهم في سباق مع الدقائق والثواني.

لم تتنازل العاصمة عن وجوه الغرباء والفقراء في الشوارع والمتسولين، كما لم تتنازل عن العمارات والأبنية الكبيرة والبيوت.. وحقائب الأثرياء ماركات فساتين النساء العالمية.

لابد فيها آمال هزيلة وآمال معلقة وذكريات مكتنزة بثراء أصحابها البسطاء والمثقفين.. الجهلة والمتعلمين.. الكادحين والتجار.

ما الذي أخذته العاصمة وما الذي أعطته؟.. انجذاب "سحر نحو محمود" هل هو حب أم تحكمه احتياجات الأنثى؟

كانت تنبهني إلى أدق التفاصيل لألتقطها بعين الفنان.. بينما قلبي يلتقطها، أو أثرت فيه بما لا تراه هي.

وكانت " سلوى" تشاركنا نزهتنا وحواراتنا حتى وصلنا إلى شقة "محمود" في الطابق الثالث من عمارة تقع في شارع فرعي.

شقة مرتبه بأثاث جميل ذو لون بني فاتح وغامق، الأرائك المصنوعة من الجلد تلونت بهذين اللونين مع بعض المساند الزاهية.

غرفتان واسعتان، حمام خاص للضيوف وحمام في الغرفة التي خصصها "محمود لسحر وسلوى"، اقترح أن ينام في الصالة ويترك غرفته لي.

وهم يعدون العشاء رن جرس الباب، وإذا الفنان "علي" وبصحبته ثلاثة فنانين قدمهم إلينا وعرفهم بي فنان المستقبل كما وصفني.

طافت الفرحة على جسدي وروحي.. وسرت كما تسري الأنهار في الأرض.

تذكرتْ الاتصال بأبي، فأسرعت إلى الهاتف.. عرف صوتها من بداية سلامها ورحَّب بقوة، ثم سألها عن سبب اتصالها ؟

أجابته على اتفاقها مع فنانين في العاصمة ومشاركتي معهم،

سألته فيما إذا كان يحب معرفة العنوان ليحضر إلينا، كما أوضحت:

- غدا سنرجع إلى القرية.

تلعثم في رده:

- لا.. سأراكم وقت المعرض أنا استعد للسفر يوم غد.. هل تحتاجون لأي شيء؟

- نعم.. نحتاج أن تتكفل حضرتك بمصاريف المعرض.

- حسنا.. إن كان على الفلوس سهلة سأرسلها.

ولم يسأل يرسلها لمن وأين ومتى.. فقط رغب الخلاص من هاتفها لذا استعجلها القول.. أو قرر إرسالها إلى المديرة.

أعطت الهاتف لمحمود ورجته أن يعطي لأبي التفاصيل الخاصة بتحويل المبلغ إليه.

لم تشأ استرجاع الهاتف.. قالت لمحمود:

- تكفل أنت وودعه.

وحين أخذ الهاتف "محمود" وجده مغلقا.

في صباح اليوم الثاني زرنا صالة كبيرة مخصصة لمعارض الفنانين وكان الفنان "علي" بانتظارنا.. ثم أخبرت "سلوى محمود" رغبتها في حجز موعد في محكمة شرعية، لكن "محمود" ارتأى أن يقوم هو بذلك ويخبرنا في حينها.. ثم هز رأسه:

- ما زلت مصرة يا "سلوى" على إثقال كاهل الحياة بمعوق جديد؟

- نعم.. ولِمَ تقول أثقل كاهل الحياة؟.. الآن خذني إلى أقرب محل أتبضع شيئا "لحمامة وسالم".

عدنا بعدها إلى القرية.. استأجرنا سيارة أجرة، لم ترغب

"سحر" بإزعاج "محمود" علما لها رغبة شديدة في البقاء معه أطول وقت ممكن.

كنتُ صامتا متطلعا من نافذة السيارة شابكا أصابعي العشرة.. كأنني في مكان ناء وليس معهم.. كنت أعرف أبي وأعرفه سيرسل النقود، وهذه حدوده فقط. في استذكار كلمة أبي تدفق المر من قلبي ومن عمق روحي.

الرحلة الأخيرة

لقد ضممتُ قلبي إليَّ كثيرا، استعنتُ
بالدموع، مثل جرح يرتعشُ ساعة الشفاء

لابد من الاعتراف بأنني ظلمت نفسي، ومنذ اللحظة عليّ إرجاع ما ضاع مني طالما الله وضع خيره أمامي.

في السابق التبس علي الأمل في قدرتي وقوتي.. والآن هناك الكثير ممن يقف في صفي.

ماذا يعني بلا أب يسأل عني.. لأعتبر نفسي يتيما.

كانت هذه الفكرة تلح علي في أزمتي واحتياجي لأب، ومنذ القرار الأخير صارت مجرد ضباب كلما استحضرت صورته في بالي، أو مر علي ذكر كلمة أم.

لن أظل بعد الآن في صراع بين الاستسلام والقبول بأمر الواقع.. أنا موهوب

ونفوس الشر لا تعنيني.. أجل سأبدأ من اللحظة ليكون لي معرضي الخاص في العاصمة وروايتي وإن كانت هي مذكراتي، ستأخذ حيزا من اهتمام النقاد.

لابد من خلق الضوء في ليل غرفتي المدلهم.. وأصوات رفاقي المعاقين أعتبرها موسيقى خاصة أكون أنا قائد الأوركسترا

لها.. هل تخيل أحد هذا قبلي؟ لا أظن.. إذا.. علي قيادة فرقتي وسماع سيمفونيتنا الجديدة.

حين يدخل الأمل فجأة إلى القلوب.. ويفتح له القلب مصراعيه.. يعني أصبح النهار أكثر جمالا من ذي قبل.. والليل ينطق بالجمال كما أول الفجر.

كل هذه الأفكار راودتني و"سحر" تخمن أضمر شيئا في داخلي.. بل عازم عليه.. لأنها كانت ترى إيقاعه على ملامح وجهي.

كل حركاتي تعني لها شيئا، حين أمط شفتي السفلى وأضغط عليها بسني.. وحين أعقد حاجبيّ الخفيفين وأفركهما بأصابعي تراقبها جيدا.

كانت تبتسم في وجهي وكأنها تقول لي استمر بما أنت فيه، فأجيب بابتسامة الفرح.. واستمر كما طلبت مني.

رجعت إلى أفكاري والسيارة تتهادى في سرعتها.. سمعتُ "سحر" تطلب من السائق ألَّا يسرع.. أكيد قصدت ذلك في طلبها، تريد فتح المجال لأفكاري بالنضوج والتصميم والعزم.

وصلنا الدار عند الخامسة عصرا متعبين من الطريق، إلا أنا، كان الطريق بالنسبة إلي فاتحة بدأتُ فيها بوضع اللبنة لأركاني الأربعة.

كثفت "سحر" دروس الرسم واللغة العربية إلي، وكنتُ أستجيب لها بصبر وقوة إرادة.. تُرهقني الدروس فلم أعر للتعب اهتماما، بل زادني إصرارا،

خاصة حين أسمع منهم ما وصل إليه موضع زواج "سالم وحمامة".. وما رأي القاضي مجددا.

صعبت علي الكتابة فالفرشاة أسهل من القلم، تهتز يدي مثل

السعفة وقت الكتابة، فأمسكها باليد الأخرى، تستجيب لي وتكون طوعي.

تغيرت الأشياء في داخلي وأذعنتُ لها.. صحيح كنا نمر بحالة تذبذب في البداية، إنما الانتصار كان أقوى فهزم الضعف.

اتصالات دكتور"محمود" كثيرة في هذه الفترة ومثله الفنان "علي". خاصة وقت أخبرته "سحر" بأنني أكتب مذكراتي أولا بأول قال لها:

- ليهيئها مع اللوحات وسأتفق مع دار نشر لتطبعها.

وقع الخبر على روحي مثل غريق رفعته موجة عالية إلى الساحل.

فتعلقتُ أكثر بالقلم، وأجبرته ليكون رحيما ويكتب ما أملي عليه دون ارتجاف.

احترت كيف أكافئ الجمال من رفقتي الحنونة هذه.. بينما بالمقابل يستفحل القبح على أبي ومن على شاكلته.. صرت على يقين بأننا الباقون وهم في جحيم الفناء.

أفكر الآن بطريقة الخلاص من "أحمد" الآخر.. لم يعد يعنيني أمر استكماله الرواية..، وقاحته كثرت واعتداءه بالكلام علي تكرر.. لم يعد "أحمد "الذي تخيلته أو رغبت أكونه.. لذا سينتهي أمره غدا في الصالة في حفل الختام.

تحرك ببطء بعد رميه الغطاء وتذمر كعادته.. سألني فيما ذا وصلت معه إلى الرحلة الأخيرة، فأجبته بنعم وواصلت فكرة التخلص منه وهو يتطلع إلي بنظرة غريبة قال لي:

- أراك عازما على أمر ما، هل تخبرني عنه؟

- نعم.. فعلا عزمت على أمر الخلاص منك.

أجابني والثقة من نهايته بادية عليه:

- كنت أتوقع ذلك.. ألم أقل أنك إنسان أناني؟

- لم تعد في حاجة إلي وستخرجني من عالمك، لكن كيف؟ لقد أصبحت عالمك منذ الرسم ألأول، هل نسيت بحلقة عينيك على الورق؟ استدرجتك إلى ملامحي فلم تستطع، رسمتني على شكلك أنت وأمليت علي أمنياتك ورغباتك.. الشكل المفقود فيك وضعته على صورتي وحركتها كل يوم باحثا عنك فيَّ.. أيها اللئيم أنا أيضا كرهتك فابعد عني.

تركتُ الرواية مفتوحة على الرحلة الأخيرة وتسللت إلى أحرفها أقرأ.. فعل هو مثلي بمحض إرادته راغبا معرفة المزيد والبحث عن صيغة تفكيري فيها، والعزم على وضع اللمسات الأخيرة إلى دوره كمرافق لي منذ بدايتي حتى حفل الختام.. لكنه غبي.. أنا تركت نهايته مفاجأة.

بدأت الرحلة الأخيرة ب..

*

رص القلم بقوة يتعب أصابعي، فكانت كتابتي للشعر قليلة خاصة حين تعلقت بالفرشاة واللون يشرب مني الكثير.. غضبي، الحب المفقود.. والأب المفقود، أم لم أرها ورسمتها ذات يوم لتكون في المعرض على شكل حمار. ثم مزقتها فهي لا تسحق حتى الحمار.

ليلتها لم تنم "سحر"، رأتني قلقا أكثر من أي يوم.. أختصر القمع البشري بكل أصنافه في تلك اللوحة.. في البداية كانت الوجوه مشوشة، ملساء مسطحة.. والعيون ممدودة طويلا كأنها تنوي الخروج من أطراف اللوحة، والأنوف طويلة جدا شوهت الوجوه.

وجه واحد لأنثى تقف نهاية الرسم، بدون ملامح، مجرد

جسد يوحي بأنوثة وفم كبير بأسنان طويلة.. على ثوبها رسم حرف "ما" أعوجا وعدلا ومقوسا، ومنحنيا ليزين الثوب الأسود كله.

وقفت أمامها طويلا أحل لغزها، مددتُ أصابع مترددة إلى كلمة ما.. مسحت حرف الألف لتبقى الـ"ما" مبتورة.

"سالم وحمامة".. عيون، وأصوات مبعثرة وابتسامات مشوشة تلاحق بعضها وتعود إدراجها غير عارفة ماذا كان أو سيكون.

أم "سالم" كل أسبوع تأتي بثوب وسلسلة أو منديل "لحمامة" وتخبر المديرة أنها من استعدادات المهر، فتلاطفها المديرة خوف جرح مشاعرها:

- هذا سابق لأوانه يا أم "سالم".. لنحصل على قاض يقبل بعقد القران بعدها افعلي ما تشائين.

و"حمامة" تركض وراءها، تضع رأسها في حجرها، وتشم عباءتها.

الفنان "علي" بعد زيارته الأخيرة لنا غير فترات قدومه كوني لم أعد بتلك الحاجة إليه، وأنني عثرت على ضالتي وعرفت أي اتجاه أسلك في رسمي.

يتابعني كل أسبوعين مرة، ويؤكد على الاهتمام بأطر اللوحات ونوعيتها وتناسب كل إطار مع اللون والموضوع، وبعضها نتركها دون إطار.

لفتت انتباه "سحر" لوحة غريبة رسمتها، وكلما أكملتها أعود أمسحها وأتركها لأعود إليها مرات أخر. كانت عينين غير واضحتين.. يدين مقطوعتين.. حاجبين كثيفين.. وخيال عابر كأنه لن يعود.

أصبحتْ لدي عشر لوحات فنية غاية في الروعة، وأصبحتُ مهيئا لمعرض المدينة.

كلما اهتزت أوتار قلبي سكنتُ إلى وحدتي، صحتي تحسنت قليلا وصرتُ

أتناول الدواء والحساء وآكل بشهية.

ازددت وزنا طفيفا وتورد خداي.. ذات يوم راحت "سحر" تغازلني:

- أنت جميل اليوم وشاربك أصبح كثيفا، ما رأيك لو خطبتك لنفسي؟

تورد خدي خجلا، مسحت يدها بأناملي.. ثم ضغط كفي على كفها.

لأول مرة أشعر بقوة في كفي.. حمدت ربي لأنه أعانني، ووهبني صحة ونضارة.

جلستْ "سحر" على الكرسي المتحرك وأنا في فراشي:

- هل أنت مستعد نفسيا للمعرض، والزوار والصحافة؟

فاجأتني كلمة الصحافة، لم أحسب لها حسبان، ورفضت رفضا قاطعا التصوير والظهور في أية مجلة أو تلفزيون.. حتما كنت خجلا من شكلي.

- نعم مستعد، وسأرتب نفسي لذلك.. قلتها بكل ثقة هذه المرة.

واستمر الحديث عن حياتنا.. وترقب الزواج المفترض.. قبوله والرضوخ إليه كأمر واقع.

أوشكت الشمس على الشروق إذ لم ننم ليلتها جميعا، "سحر وسلوى".. قضيتا الوقت كله في الاحتمالات الممكنة وغير الممكنة.. رغم استعدادهما الكامل للذهاب إلى المحكمة الشرعية.

حين توسلت أم "سالم" للمختار أذعن لرغبتها ووافق على الحضور معهم صباحا.. وكذلك الدكتور "سليم" قدم على إجازة من المستشفى وأتى إلى الدار في السابعة صباحا، كما اتفقت المديرة مع سائق سيارة كبيرة ليقلهم جميعا.

تهيأت والإثباتات عن حمامة معها.. أما "سحر" كانت جاهزة في كل شيء، حتى التقارير الطبية.

كم أمل أعطاهم السير في السيارة، وكم إخفاق ألهب قلقهم في متابعة الفرحة بوجهين بريئين.

سأل القاضي عن ولي أمر "سالم"، فتوسطت المكان أمه:

- سيدي.. أنا ولية أمره ومعي إقرار من المحكمة بذلك، فهو يتيم ولا ولي له غيري، أنا القيمة عليه.. وإذا لا يفي هذا بالغرض جئت بالمختار فهو عارف بأمورنا كلها وشاهد على وفاة أبي "سالم" وولادة "سالم"، ونحن نعيش في قرية، يعني الهواء الذي يمر على بيت يمر على البيوت كلها.

حسنا.. قال القاضي وسأل عن ولي أمر "حمامة".. هنا تقدمت المديرة وأخبرته بكل ما لديها عن" حمامة" طلبت منه أن يسأل الطبيب عن وضعهما الصحي وبإمكانهما الزواج رحمة بقلبين يودان التآلف والمحبة،

والطبيب النفسي أجاز ذلك، كذلك الطبيب "سليم"، فالطب لم يرفض هكذا زيجة.. لذا نرجو منك عقد قرانهما من الجانب الإنساني والأخلاقي.

صمتَ القاضي برهة وهو يتطلع إلى وجهيّ "حمامة وسالم" ثم إلى وجوههم.. لمعت عيناه بالتقائهما بوجه العاشقين المسكينين اللذين تلونا بكل الألوان والصور وهما يضعان يدا بيد وينظران بعين الدهشة من حولهما، كأنما يقولان بنظراتهما:

- إننا نحبكم جميعا فأحبونا مثل ما نحبكم.. سيفوت اليوم ويأتي الغد، لكننا لن نختلف أو نتلون مثلكم.. لون واحد لنا لا غيره.

نحن نبتسم ولا نعرف غير الابتسام فإن رغبتم نعيره إليكم لتتحد قلوبكم.. كما ليس لدينا هدية غيره نقدمها لمن يرغب.

هكذا كانت "سحر" تقرأ ما في عيونهم وتتخيله.

ضاقت ذرعا من صمت القاضي، ومثلها المديرة وأم "سالم "الوجلة،

من النتيجة، بينما القاضي يحدث نفسه بصمت:

- ممكن أن أكون أنا ولي "حمامة وسالم" معا وتوقع أم "سالم عن سالم" باعتبارها القيمة عليه، ونأخذ من المختار والدكتور" سليم "شاهدين على العقد.. لكن هذا مستحيل، فأنا أساهم بولادة معاق آخر.

رفع رأسه إليهم:

- هذا لن يتم.. ولن أساهم بهذه المصيبة.

خشية وقوعه تحت تأثيرهم العاطفي وموافقتهم على طلبهم شرع يقرأ في ملف قضية أخرى.

أذهلتهم المفاجأة، بينما سلوى غارقة في حلمها وتوقعاتها.. بأنها ستأخذ البصَامة وتملأ إصبع "سالم وحمامة" بلونها ثم تفركهما على ورقة العقد وهما ينظران باستغراب لفعلتها هذه، و"سالم" بفرحته المختلفة، إذ لديه وعيا يستوعب بعض ما يدور ويفرح له لرغبته العارمة بتحقيقه... مع هذا لا يستطيع مسح البلاهة عن ملامحه كما خلقه رب العالمين.

لكن كل ذلك لم يحدث بقرار القاضي المفاجئ.

رجعوا إلى الدار، يحفهم الصمت.

كانت رحلة شاقة بالنسبة للجميع، ومتعبة بنتيجتها.

توقعوا فرحتهم في المهرجان الكبير والسوق الخيري ستكون فرحتين.. عرسا وانتصارا على العوز، ومشاركة الأهل بنتاجهم وإشعارهم بقدرتهم على إنجاز أعمالا يدوية.. المعاقون القادرون على الرسم وترتيل الأناشيد وإن كان بتعثر أصواتهم ولغتهم سينتصرون على العجز.. لكن في النهاية سيفرحون، ما يهمهم جميعا رؤية السعادة في عيون الجميع.

مع كل هذا الإحباط "سلوى" مصرة على البحث عن قاض آخر ولو بعد حين.

الزمن في الدار لا يُقاس بدقائقه وثوانيه، بل يُقاس بعدد الذين أحبوك وأحببتهم... كما يُقاس بعدد الفرحة التي استوطنت القلوب.

زمن "سحر" يشبه البستان، وأنا بالنسبة إليها "عنقود الأحمدي" ورده وبراعمه.. أما "حمامة وسالم" فهما فراشات تمر أجنحتها على ورد الحقل لا يدريان بحبي "لحمامة" ولا يريان إلا حبهما ومعانقة نظراتهما.

لم يكن بالحسبان دخول الدكتور "محمود" حياة "سحر"، تعاملت معه في بداية الأمر بتردد، وأخذ الحيطة من الحوارات بينهما حتى لا تبتعد عن "عنقودها الأحمدي"، وحين سألها عن موافقتها إذا خطبها اعتذرت بسبب عنقودها، كانت محقة فعلا في عذرها وصادقة.. لم يكن عذرا بل حقيقة لا تستطيع المفر منها وعنقودها لا يثق بأحد غيرها ولا يستريح إلا إليها.

تفهم "محمود" وضعها، وطلب ترك الأمر حتى يحين وقته.

لم يفقد "محمود" الأمل في موافقتها وظل يتواصل معها في كل حين مؤكدا على حبه الكبير.

الأمنيات بدأت في التراجع بالنسبة إلي، باختلاف الباقين الذين لهم أمانيهم الكثيرة في الحفل والفرح به.

مرت الأيام مسرعة حتى جاء موعد الحفل والمهرجان الكبير.

كان الحضور كبيرا، من الأثرياء وأبناء القرية الميسورين والكسبة والفلاحين وأسر المعاقين، والدكتورين "سليم ومحمود" ومدير الشرطة وأهالي موظفي الدار والمعاقين القادرين على الجلوس، إلا أبي الغائب الدائم.

رتبوا طاولات عرض المنتجات اليدوية، وبعض الأكلات التي قمن بطهيها سيدات العمل الجماعي.. وقدم لهم أطباقا لذيذة العم "متروك" بائع الحلويات، وضعوا أسعارا رمزية لبيع المنتج تبرعا للدار، فتقدم كثيرون للشراء.

في برنامجهم الموسيقى غنت الشابة الريفية وكذلك الرجل المرشح من زوجته، وشاركته الزوجة في الرد عليه.. فاكتشفوا ساعتها أنها قادرة على الغناء لكن خجلها منعها من تزكية نفسها.. وزوجها لم يصرح بذلك بدافع الغيرة.

تم اختيار أجمل المنسوجات وأدقها اتقانا للفوز، وكذلك الرسومات التي ملأت لوحاتها سور الحديقة.

أخذت المديرة المذياع قائلة:

- لدينا مفاجأة كبيرة ومهمة للجميع.

كانت قد اتفقتْ مع فرقة الموسيقى بعزف معزوفة خاصة بالفائزين.

وراحت تطلب من الفائزين القدوم إلى المنصة، واستلام الجوائز الخاصة بالفوز.

"حمامة" رغم دهشتها وريبتها من الحضور إلا أنها كانت مسرورة، تحمل بيدها وردة بيضاء، وتزين رأسها والعطر يفوح بقوة

من فستانها الجديد ومنها.. أمسكت "سحر" بيديها وأجلستها قرب أم "سالم".

فرح الجميع بالفائزين وتمنوا للباقين فوزا قادما.

كانت ملامح "سلوى" توحي بإصرارها البحث عن قاضي جديد، مما أثار غضبي وحنقي عليها لحظتها.

الغريب في الأمر منظر "حمامة" بثوبها الجديد لم يعن لي شيئا.. بل نزل وقعه علي مثل الثلج تماما.

ثم نظرتُ إليها وإلى "سالم" نظرة المنتصر.

كلما سمع "محمود" أغنية حب أدار برأسه حول "سحر" ومكَّن عينيه من الثبات في وجهها والنظر بعينيها لاكتشاف الحب فيهما، ربما شعر بالحب يتسلل إليهما.

أكد الدكتور" محمود والفنان علي" على يوم الحفل الخاص في المدينة، وحددوه بالتاريخ واللحظة، ثم طلبوا من الجميع الاستعداد له.

أخذ الفنان "علي" اللوحات التي رسمتها كلها وكذلك الدكتور "محمود" أخذ مني النسخة التي كتبتها بخط يدي بعد اتفاقه مع صاحب دار النشر، وهو بدوره وعده سيتم القيام بتدقيقها ونشرها خلا ل شهر ونصف، وعلى ضوء كلامه تم تحديد تاريخ الحفل.

كنتُ أعد الساعات بثوانيها.. وأشد من إرادتي، لم أقرر الرسم مجددا، بل أنتظر الرأي النقدي في المعرض، ولم أكتب غير بعض أشعار قصيرة تعني لي الكثير، لأنها تصف حالة الانتظار لشخص مثلي، جل حياته المعرض والرواية بعد خيبته.

كانت الأيام تعني لي دهرا طويلا.. بأيامه ولياليه.

ظهر لي "أحمد" عدة مرات يبعث في نفسي القلق:

- لا يأخذك الغرور ولا تظن الأمل بين يديك.. رأي الفنان "علي " وحده غير كاف لتصبح فنانا لامعا.

أحسستُ ليلتها بخدر كبير يتسلل إلى جسدي.. يستقر في مفاصلي.

الحوار بيني وبين "أحمد" في فترة الانتظار أشبه بصعود سلم ونزوله.. بين نقطة النهاية في الصعود، ونقطة النهاية في النزول، لا نصل إلى شيء سوى التوتر بين المرحلتين.

لولا "سحر" التي ليس لها أدنى شك في فوزي لأصبتُ في انهيار الترقب والصمت الطويل.

كان الافتتاح رائعا بحضور عدد غفير من المبدعين والمهتمين بالفن والكتابة، كنا ننتظر رئيس الدار ليقص الشريط.. الفنان "علي" بكامل زينته، يرتدي بزة رمادية وبجانبه الدكتور "محمود".

"سحر وسلوى" لبستا أجمل ثيابهما، وأنا اشترت لي المديرة بزة زرقاء فجاءت توافقا مع ذوقي.. لكن باقي الفنانين اكتفوا بالقميص والرباط والسراويل الجينز.. كنا نتمنى حضور المديرة لولا وعكة صحية أصابتها.

وضعت "سحر" ملاءة بيضاء على قدمي وتقدمت بالكرسي لنقف في صف المنتظرين قص الشريط.

همس في أذنها دكتور "محمود" :

- بعث لي أبو "أحمد "مبلغ التكاليف.

أجابته متبرمة من اسم أبي:

- شكرا لهذا الفضل الكبير.. والتصقت بالكرسي المتحرك كأنها تلتصق بي. تبعد عني الصحفيين.. لكن عدسات كامرات التلفزيون اقتحمت رفضنا وخجلي وصورتنا معا في حضور رئيس الدار لقص الشريط وتوزيع الحلوى.

أرادت إحدى المذيعات عمل لقاء معي فأشرتُ لها بالرفض، وكتبتُ لها على قصاصة ورقية (لا أستطيع الكلام).. فاعتذرت دون أن تحرجني.

أسعار اللوحات وضعها الفنان "علي"، وهو من حدد ثمن رسوماتي.

كان "أحمد" يقف في صفي ويقلد كل تحركاتي.. يبتسم للحضور كأنه أنا وكأن المعرض والأمسية تخصه هو وليس أنا.. نفس ثيابي.. قلمي بين أصابه ولا يجرؤ على توقيع النسخة الأولى... كما لم يجرأ على قراءة مقدمة الرواية.

في اليوم الثالث والأخير للمعرض.. ونحن في غمرة فرحتنا وزهوي برأي الحاضرين بفني وكتابتي الراقية ولغتي العالية الشعرية في رسم الرواية، وموهبتي العظيمة.. فاجأتنا المديرة بحضورها.. فشعرنا بسعادة لا مثيل لها، كنت متوقعا أنها ستتحدى المرض وتحضر.

اشترت سيدة ثرية لوحتين وغادرت.

لم تطلب أخذهما، بل ارتأت تأجيل ذلك حتى نهاية المعرض، سيأتي سائقها لأخذهما.

استغربت "سحر" سلوكها ووجهت سؤالا إلى محمود:

- ألا ترى غرابة في ذلك؟ الم تكن السيدة مغرورة؟

- لا غرابة في ذلك سيدتي.. رد عليها "علي" تعودنا على أسلوب الأثرياء في تعليق جهودنا على حوائطهم والتفاخر بأثمانها.

لا تقلقي، "أحمد" وقع اسمه عليها، هذا يعني ستؤول إليه.

ساورني شك أن تلك السيدة سكرتيرة والدي.. أو إحدى غوانيه.. فطلبتُ من "سحر" تتبين الأمر، فإن كانت هي ترجع النقود إليها وتبيع اللوحات لمشتر آخر.

لكن "سحر" فعلت ذلك.. ولم تفلح..، لأنها لم تترك عنوانا أو هاتفا.. فوضعتنا جميعا في حيرة تصرفها.

تيقنت "سحر" جيدا أن هذه المرأة مرسلة من قبل أبي فعلا.. تعبيرا له عن مشاركته المعرض.

ثرتُ غضبا:

-المشاركة ماديا على طريقته.. لا أريد المبلغ أعطه لفقير، لعل العطاء يخفف من ذنب أبي.

انفض الجمهور والصحافة والناس جميعا، جلس الجميع بركن في المعرض يحتفلون بي.. أعطاني "علي" ظرفا فيه ثمن اللوحات المباعة وتمنى لي شهرة أوسع لأصبح فنانا عالميا.

أدركت ما في المظروف.. طلبت من "سحر" أخذي باتجاه المديرة.. تبسمت وصافحتها ثم قدمت المظروف هدية للدار.

كان "أحمد" يأخذ ركنا قصيا في القاعة.. لوَّحتُ له بإشارة وداع، وبدا بناظري مثل شبح.. تغيرت ملامح وجهه وكأنه يقول لي لا أستحقك... بدأ يضمحل شيئا فشيئا.. وبالتدريج اختفى.

لم تكن الرواية في يده بل كانت في يدي أوقع تلك النسخة التي قرأنا معا تفاصيلها لأقدمها هدية للمديرة.

لوحة خبأتها ولم أشاركها في المعرض.. وضعتها مع حاجياتي في الدار، وفي عودتنا قدمتها هدية لسرور.. كان يرغب في المشاركة لكن رسمه لم يكن بموهبتي.

لمعت عينا سرور وأدمعتا مثلي.

في اليوم الثاني تحولت الدار إلى احتفالية أخرى.. كان كل شيء مقرونا باسمي حتى الهدية المقدمة من المديرة سميت هدية "أحمد"، واليوم يوم "أحمد".. فاجأتُ "سحر" بصورتها وهي واقفة بجانبي، رسمتها بالفحم تعبيرا عن اتحاد هذين اللونين...

أبيض الورق وقلم الفحم.. الظلام والنور، كنتُ أنا الظلام وهي النور.

رجعتُ إلى "أحمد" الأصل وليس الصورة.. أو "أحمد" المتَخيل من قبَلي "وسحر" ترافقني رحلتي القادمة.

هذه حكاتي.

أنا "عنقود الأحمدي" نزيل دار رعاية ذوي الاحتياجات الخاصة.. أعلّم الرسم والكتابة، وأشجع ذوي المواهب لأعينهم على تقبل الإعاقة برحابة صدر.

(لقد طرتُ يا أبي بجسدي وروحي خارج العتمة)

وفاء عبد الرزاق

- مواليد العراق – البصرة.
- المملكة المتحدة – لندن.
- شاعرة وقاصة وروائية.
- مستشار رابطة إبداع العالم العربي والمهجر في المملكة المتحدة.
- تناول منجزها الأدبي من قبل نقاد كثيرين عبر دراسات وقراءات نقدية منشورة في مختلف الصحف والمجلات الورقية والالكترونية، كان آخرها كتاب المتخيل التعبير للدكتور نادر عبد الخالق.
- نالت أعمالها الشعرية والقصصية والروائية العديد من الدراسات وشهادات التخرج وأطاريح الدكتوراه والماجستير.
- حازت على تكريم من جمعية المترجمين واللغويين المصريين مع عضوية شرف في حفل تم برعاية الدكتور حسام الدين مصطفى رئيس الجمعية.
- حازت على تكريم وعضوية شرف من النادي الأهلي، البحرين.
- رُشحت سفيرة للنوايا الحسنة من قبل المؤسسات الثقافية المدنية غير الحكومية ونخبة من المثقفين والمبدعين الملتزمين بقضايا الإنسان والإبداع.
- تم تكريمها من قبل العديد من المؤسسات الثقافية العالمية والعربية والعراقية.
- حازت على المرتبة الأولى لجائزة نازك الملائكة للقصة القصيرة جدا 2012 العراق.
- تم تكريمها من قبل جامعة ابن زهر، أغادير، المغرب، 2012.
- تم تكريمها من جامعة واسط العراق، 2012..

- تم اختيار ديوانها: مدخل إلى الضوء ضمن المناهج الدراسية لكلية الآداب، جامعة ابن زهر، المغرب،من قبل الدكتور عبد السلام فزازي بعد تقديمه للديوان 2012.
- تم اختيارها سفيرة للسلام من قبل مؤسسة المثقف العربي لعام 2012.
- فازت بجائزة الإبداع عن مؤسسة المثقف العربي، سيدني - استراليا لعام 2011 عن منجزها الأدبي.
- تم تكريمها من قبل جامعة زايد، أبو طبي، الإمارات العربية المتحدة، 2011.
- أصدرت لها مؤسسة المثقف العربي، سيدني - استراليا، كتاب تكريم، 2011.
- حازت على تكريم من وزارة الثقافة العراقية 2011.
- حازت على شهادة تقدير من مؤسسة المثقف العربي، سيدني - استراليا، 2010.
- تم تكريمها من قبل مؤسسة المثقف العربي، سيدني - استراليا، 2010.
- فازت بجائزة نازك الملائكة عن قصيدة بيت الطين 2010.
- حازت على ميدالية اتحاد الكتاب المصري شعبة الطفل، الإسكندرية، مصر، 2010.
- حازت على تكريم من جريدة جريدتي للأطفال القاهرة، 2010.
- حازت روايتها أقصى الجنون الفراغ يهذي بنيل شهادة التخرج من جامعة تبسة الجزائر 2013.
- حازت مجاميعها الشعرية بنيل شهادة الماجستير من جامعة واسط العراق 2013.
- حاز ديوان "من مذكرات طفل الحرب" على أن يكون موضوعاً لنيل شهادة الإجازة في الأدب العربي بجامعة تبسة الجزائر 2009.
- حاز ديوان "من مذكرات طفل الحرب" بعد ترجمته إلى اللغة

الفرنسية "دار لارمتان" فرنسا في مشروعها السنوي "من القارات الخمس" على أن يكون ضمن من يمثل قارة آسيا تحت إشراف البروفسور "فيليب تانسولان".

- حاز ديوان "أمنحُني نفسي والخارطة" على أن يكون أطروحة تخرج من جامعة ابن زهر كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أغادير، المغرب، 2009-2010.
- حازت على الجائزة الأولى بمسابقة القصة القصيرة "مؤسسة أور الثقافية الحرة" العراق عن قصتها "أربع أقدام وسطح" 2009.
- حازت على الجائزة الذهبية - الملتقى الثقافي العربي مصر عن قصتها "الجثث تشرب العصير" 2009.
- حازت على الجائزة الثالثة - اتحاد الأدباء العراقي النجف مسابقة القصة القصيرة عن قصتها "عقابٌ أم ثواب" 2009.
- حازت على جائزة المتروولیت نقولاوس نعمان للفضائل الإنسانيَّة لبنان 2008 عن مخطوطها المعنون (من مذكرات طفل الحرب).
- حازت على جائزة (قلادة العنقاء الذهبية للإبداع) عن (مهرجان العنقاء الذهبية الدولي) العراق لعام 2008.
- حازت على وسام الوفاء (نادي ثقافة الأطفال الأيتام) من (النخلة البيضاء) 2008 العراق.
- حازت على تكريم من الديوان الثقافي العراقي - لندن 2008.
- حازت على تكريم من مؤسسة النور الثقافية - العراق - السويد 2008.

صدر لها

أ - إصدار صوتي:

عدد 6 CD شعر، إلقاء وموسيقى شعر شعبي.

ب - الشعر الفصيح:

1 - هذا المساءُ لا يعرفني، مؤسسة الانتشار العربي، لبنان، 1999.

2 - حين يكون المفتاحُ أعمى، مؤسسة الانتشار العربي،لبنان، 1999.
3 - للمرايا شمسٌ مبلولة الأهداب، دار الكندي،الأردن، 2000.
4 - نافذة فلتت من جدران البيت، منشورات بابل -، العراق، 2006.
5 - من مذكرات طفل الحرب، دار نعمان للثقافة، لبنان، 2008.
6 - حكاية منغولية، دار نعمان للثقافة، لبنان، 2008.
7 - من مذكرات طفل الحرب باللغة الفرنسية، دار لارمتان، فرنسا
8 - أمنحُني نفسي والخارطة، دار كلمة، مصر، 2009.
9 - طبعة ثانية، من مذكرات طفل الحرب، دار كلمة، مصر، 2009.
10 - البيتُ يمشي حافيا، دار كلمة، مصر، 2010.
11 - من مذكرات طفل الحرب، طبعة ثالثة، مصر، 2010 .
12 - حكاية منغولية،طبعة ثانية،دار كلمة، مصر، 2010.
13 - من مذكرات طفل الحرب باللغة الأسبانية المغرب، 2010.
14 - أدخل جسدي أدخلكم، مؤسسة المثقف العربي، سيدني - استراليا، ودار العارف بيروت - لبنان، 2012.
15 - مدخل الى الضوء، مؤسسة المثقف العربي، سيدني - استراليا، ودار العارف بيروت - لبنان، 2012.

ج - الشعر الشعبي:

1 - أنا وشويَّة مطر، دار الكندي، الأردن، 1999.
2 - وقوَّسَتْ ظهر البحر، دار الكندي، الأردن، 1999.
3 - مزامير الجنوب، دار الموسوي، أبو ظبي، 1996.
4 - تبللت كلي بضواك، دار كلمة، مصر، 2010.
5 - عبد الله نبتة لم تُقرأ في حقل الله، دار كلمة مصر، 2010.
6 - بالقلب غصّة، غضة أولى، دار كلمة مصر، 2010.
7 - بالقلب غصَّة، غصَّة ثانية، دار كلمة، مصر، 2010.
8 - حزن الجوري. . ضمن المجموعة الكاملة بالقلب غصة،غصة أولى 2010 دار كلمة مصر.

د - الروايات:

1 - بيتٌ في مدينة الانتظار، دار الكندي، الأردن، 2001.

2 - تفاصيل لا تُسعف الذاكرة، دار الكندي،الأردن 2000. (رواية شعرية).

3 - السماء تعود إلى أهلها، دار كلمة، مصر، 2010.

4 - أقصى الجنون الفراغ يهذي، دار كلمة، مصر، 2010.

5 - الزمن المستحيل، مؤسسة المثقف، سيدني - استراليا ودار العارف، بيروت - لبنان 2014.

6 - حاموت، مؤسسة المثقف، سيدني - استراليا ودار العارف، بيروت - لبنان 2014.

هـ - مجاميع قصصية:

1 - إذن الليلُ بخير، دار الكندي، الأردن، 2000.

2 - امرأةٌ بزيّ جسد، دار كلمة،مصر، 2009 .

3 - نقط، دار كلمة، مصر، 2010.

4 - بعضٌ من لياليها، دار كلمة مصر، 2010.

5 - امرأة بزي جسد في اللغة الفرنسية المغرب 2010. (مطبعة أنفو برانت.

6 - في غياب الجواب، دار العارف 2013.

7 - أغلالٌ أخرى، قصص قصيرة جداً، دار العارف 2013.

8 - وجوه أشباح أخيلة، قصص شعرية، دار العارف 2013.

مجموعة قصصية قيد الطبع:

1 - بقعة ارتجاف حرة (مشروع قصصي شعري فني مشترك، الكاتبة سعاد الجزائري قصص قصيرة، وفاء عبد الرزاق شعر،الفنانة عفيفة لعيبي رسم. فكرة العمل محاكاة المجموعة القصصية للكاتبة سعاد الجزائري شعريا وفنيا، ويشمل الكتاب لكل قصة قصيدة ولوحة).

مخطوطات:

أ - قصص:

1 - الآخرون، قصص قصيرة.

2 - وفائيَّات، بوح حر.

ب - الشعر الشعبي:

1 - ترنيمة الفراشات.

2 - نایاتٌ لها شكلي.

3 - انتماءات لوجع المطر.

4 - براويز.

الترجمات:

1 - تُرجمتْ بعض الأعمال إلى اللغة الانجليزية والفارسية والفرنسية والايطالية والتركية واللغة الكردية.

2 - تُرجمت بعض الأعمال الشعرية إلى اللغة الفرنسية في موسوعة السلام العالمي للإبداع.

3 - تُرجمت بعض أشعار (من مذكرات طفل الحرب) إلى اللغة التركية ضمن موسوعة السلام للطفل.

4 - ترجم ديوان (من مذكرات طفل الحرب) إلى:

أ - اللغة الانكليزية، ترجمة الشاعر يوسف شغري، سوريا.

ب - اللغة الفرنسية، ترجمة السيدة هادية دريدي - فرنسا.

ج - اللغة الأسبانية، ترجمة السيدة ميساء بونو، المغرب.

د - اللغة الايطالية، ترجمة الأستاذ أحمد التميمي، إيطاليا.

5 - تُرجمت المجموعة القصصية "امرأة بزي جسد" على اللغة الفرنسية، ترجمها الأديب محمد نصرافي، المغرب، 2010.

المساهمات:

1 - نشرت في العديد من الصحف والمجلات العربية.

2 - ساهمت في العديد من المهرجانات الشعرية والأمسيات الثقافية عربياً وعالمياً.

3 - شاركت في مهرجان السلام العالمي للشعر، فرنسا.

4 - قامت بعدة نشاطات كسفيرة للسلام عن مؤسسة المثقف العربي، سيدني - استراليا.

مؤسسة المثقف العربي

❖

مؤسسة المثقف العربي، مؤسسة غير حكومية، تعنى بالشأن المعرفي، وتمارس نشاطها في مجالات الثقافة والفكر والأدب والفنون. تتخذ من مدينة سيدني الأسترالية مكتبا رئيسا لها، ومن صحيفة المثقف موقعا على الشبكة العنكبوتية.

جاء الإعلان عن تأسيس مؤسسة المثقف العربي في **05/ 01/ 2010**م استجابة لمتطلبات العمل الإعلامي الراهنة، وتلبية لضرورات نشر وتعزيز وإشاعة ثقافة التسامح والمحبة والتكافل، وإيجاد مركزية مؤسساتية تضمن ترابط الأعمال الصادرة عنها، ووضعها في سياق العمل المنظم. فبعد عمل متواصل لثلاث سنوات في صحيفة المثقف انبثقت نشاطات اخرى، تطلبت وجود مؤسسة لإدارة شؤونها وتسيير أعمالها.

ومؤسسة المثقف العربي جهة مستقلة، ترفض العنف والتكفير، والتطرف المذهبي والسياسي، وتستقل برؤية بعيدا عن تشظيات الأيديولوجيا وكل الإنقسامات والخصوصيات التي تنال من كرامة الفرد والمجتمع. ساعية إلى ترسيخ قيم الانسان عبر إشاعة ثقافة التسامح والمحبة والأخوة ووحدة المصير البشري.

ينبثق عن إدارة المؤسسة مجلس استشاري، يساهم في ترشيد سياسية المؤسسة، والتخطيط لمشاريعها المستقبلية، كما ستمثل نشاطات المؤسسة خارج استراليا نخبة من المثقفين، سعيا منهم لتعميق الأواصر الثقافية بين أبناء الكيان المجتمعي المتحد.

مبادئ مؤسسة المثقف العربي

- ❖ نؤمن بالتعددية والرأي الآخر.
- ❖ ندعو للتعايش بين الأديان والثقافات.
- ❖ نتبنى قيم: التسامح، والحرية، والديمقراطية، وحقوق الإنسان.
- ❖ نحارب العنف والتحريض والتكفير.
- ❖ نرفض الخطاب الطائفي والأيديولودي المحرض.

❖ نساهم في تعميق لغة الحوار والتفاهم وفق الثوابت الأساسية المستمدة من تعاليم السماء وقوانين الأرض.

❖ نعنى بالمثقف ومواقفه إزاء الأحداث والتحديات، ونعرف بإنجازاته وأعماله ومشاريعه.

ماجد الغرباوي

رئيس مؤسسة المثقف العربي

إصدارات مؤسسة المثقف العربي:

- تجليات الحنين.. في تكريم الشاعر يحيى السماوي.
- الضد النوعي للاستبداد.
- استفهامات حول جدوى المشروع السياسي الديني... ماجد الغرباوي.
- امرأة بين حضارتين... حوار مفتوح مع ا. د. إنعام الهاشمي.
- د.عبد الرضا عليّ.. رحلةٌ متوهّجةٌ في فضاءِ النقدِ والدرسِ الأكاديمي.
- جذِلاً.. بينَ سِربِ السنونو.. سعد الحجّي.
- وفاء عبد الرزاق.. افق بين التكثيف والتجريب.
- شوكت الربيعي.. فضاء ابداعي متوهج.
- مدارات ايديولوجية.. حوار مفتوح مع الاستاذ سلام كاظم فرج.
- الشيخ محمد حسين النائي.. منظّر الحركة الدستورية.. ماجد الغرباوي.
- أيلولِ وضوء القمر.. د. هناء القاضي.
- أدخلُ جسدي أدخلُكم.. وفاء عبد الرزاق.
- غرّيد القصب... سنية عبد عون رشو.
- تعالي لأبحثَ فيك عنّي.. يحيى السماوي.
- مدخل الى الضوء.. وفاء عبد الرزاق.
- المتخيل التعبيرى.. د. نادر أحمدعبد الخالق.
- منهج الشهيد محمد باقر الصدر في تجديد الفكر الاسلامي.. د. عبد الجبار الرفاعي.
- ترنيمتان لمنقى واحد.. سوزان سامي جميل وأفين ابراهيم.

- مطارحات حول الحجاب والزينة في الشرع الإسلامي.. غالب حسن الشابندر.
- (مسرحية) رحلة ابن عوف الى بلاد الخوف.. محمد تقي جمال الدين.
- العُمْرَان البشري الإسلامي.. دراسة تأصيلية في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية.. د. رشيد كُهُوسْ.
- الأم والطفل والتغذية.. ترجمة: علي اسماعيل حمه جاف.
- في غياب الجواب.. وفاء عبد الرزاق.
- أغلال أخرى.. وفاء عبد الرزاق.
- أشباح وأخيلة.. وفاء عبد الرزاق.
- إدمان السياسة.. جورج كتن
- الزمن المستحيل.. وفاء عبد الرزاق

AAA - Sydney - Australia
Almothaqaf Arabic Association
مؤسسة المثقف العربي 2010
www.almothaqaf.com
almothaqaf@almothaqaf.com

المحتويات

إهـداء 5
دعـرفـان 7
الزمنُ المستحيل 9
الرحلة الأولى 15
الرحلة الثانية 29
الرحلة الثالثة 43
الرحلة الرابعة 49
الرحلة الخامسة 63
الرحلة السادسة 85
الرحلة السابعة 103
الرحلة الثامنة 115
الرحلة التاسعة 137
الرحلة العاشرة 165
الرحلة الحادية عشرة 179
الرحلة الأخيرة 193